أضحوكة العطش

|1|

أضحوكة العطش

جمال حسن

تصميم الغلاف:

رقم الإيداع: 2017/26493

I.S.B.N:978- 977-6640-13-9

الطبعة الأولى 2018م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

نائب المدير : رامي غزالة

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جمال حسن

أضحوكة العطش

روايتان



إهداء

إلى كل شعب بطل

صمد ضد التيار

وظل يقاوم جحافل الليل

سابحًا نحو الفجر رغم

طول ليل شتائه!!

صمود 2

1 - باتـــعـــة

أمسك الليل بفرشاته يلون لوحة الوجود، وقفت بنافذتي أتأمل القمر الباسم الذي يطل بوجهه الجميل على البشر، ما عاد يشعر به الكثيرون، لكن هذا لا يعنيه فالحياة لابد أن تستمر طوعًا أو كرهًا، الحياة كنز كبير لكن فتحه يحتاج إلى كلمة سر!!

باتعة!!

كان الاسم يغيظني، كم تمنيت لو كان اسمي كتلك الأسماء التي أقرأها في الروايات أو حتى تحفل بها قوائم أسماء تلاميذي بالمدرسة رحم الله أبي! أصر أن يسمي خلفته أول إنجابه باسم والدته، واشترك مع الأم في تسمية الولد "عمرو" والصغرى "دينا" سعدت حين حصلت على كتاب عن معنى الأسماء. "الباتعة": الحكيمة، القوية، القاطعة في الرأي، السديدة في الفكر.

أدخل لأبحث عنها، أشعر بحاجتي إليها الآن، كراسة خواطري، الكثيرات يكن لهن مثل هذه الكراسة، لكن كراستي ظلت صديقتي حتى بعد أن سجلت لرسالة الماجستير.

تنتابني الحاجة لكراستي مع كل وجع يضرب نفسيتي، أقرأ بعض ما فيها.. رحم الله أبي، اختطفه الموت دون مقدمات، كنا صديقين، ما قلق عليّ أحد قلقه عليّ، يجن جنونه لو تأخرت لأسبوعين بالمدينة الجامعية دون اتصال، وحين أعلمه بيوم عودتي أجده ينتظرني في

المحطة كي نعود معًا إلى البيت، نتحدث في كل شيء، أحكي له، يناقشني بهدوء عذب، أقنعه مرة، ويقنعني - رغم بساطته – مرات، يراني حلمه في الحياة.

هذه المعاملة لا يعاملها حتى لعمرو المدلل.

كل فتاة بأبيها معجبة – كما يقولون. لم يكن أبي يحمل سوى الشهادة الابتدائية، كان يعمل مؤذنًا بالمسجد القريب، يجيد الحديث في أمور الدين والحياة وله وجهة نظره في السياسة، ويفهم في الأوراق والمصالح الحكومية ذات الصلة المباشرة بالناس ويعرف كيفية تفكير الكثير من الناس، ويؤمن بالضعف البشري ويتعاطف معه، حين كنت أمازحه أقول إنه "عقاد" المنطقة فيضحك سعيدًا كطفل حبيب.

أبي الحبيب – وليس هذا ذنب أحد – أورثني مع طباعه وحبه للقراءة بعضًا من صفاته الجسدية، صاحبة قامة طويلة وبشرة قمحية داكنة، أعتبر نفسي جميلة لكنه ذلك الجمال الهادئ الذي يحتاج لتأمل.

قالت أمي متنهدة: حكمتك يارب ولا اعتراض، لو كان بياض عمرو في باتعة!!

آوه ياأمي.. مجتمعنا يفضل المرأة البيضاء، أستشعر القبول لدى من ألتقيهم فى الحياة، لكن هذا القبول لم يترجم حتى الآن إلى المناسب الذي تبغيه أمي بشدة.

ياأمي العزيزة الحالة الاقتصادية في البلد ليست على ما يرام، وهي كذلك دائمًا.. العالم على شفا حرب لا يعلم إلا الله ثم القائمون بالبيت الأبيض والبنتاجون والكونجرس إن كانت ستندلع أم لا .

صحة أمي – منذ وفاة أبي المفاجئة – كدرجات سلم، تهبط كل يوم درجة.

خرج أبي للمسجد كعادته، أذَّن للظهر، غاب إمام المسجد فصلى بالناس، وجلس بعد الصلاة يتمتم بأذكار ثم سقط ميتًا، حملوه للبيت لتكون الصدمة.. هذه الحياة عبث، ما خلقنا إلا للحزن والعذاب، المصاب فادح، لو مرض وطفنا به على الأطباء والمستشفيات حتى يئسنا من شفائه لكان في ذلك أكثر التأسي، أما أن يسلبه الموت هكذا فتلك...

أستغفر الله العظيم من كل الذنوب، اللهم إرادتك، سبحانك لا تسأل عما تفعل وهم يسألون.. كراسة خواطري حفلت باضطرابي وتخبطي.

تعلقت بنا الحياة على المعاش الذي تركه الوالد الراحل حتى وصلني خطاب التعيين كمعلمة.

فكرت أن أقطع رسالة الماجستير، لم أتخذ قرارًا بعد، أحاول أن أكون راضية، أصلي الجمعة- وبعض الفروض – في المسجد، الصلاة تمنحني هدوءًا وترضية، لولاها لأصابني جنون ولا شك، الحيرة والألم يحيطان بكل شيء، أفتح التليفزيون، أمريكا حشدت حشودها في الخليج تنوي ضرب العراق، والعالم يحاول منع ذلك أو يتظاهر بالمحاولة، الجهود الدبلوماسية لا تهدأ.

حرب أم لا حرب؟!

شريعة الغاب أم قوانين العقل؟!

الانسحاب من الماجستير أم استكمال الطريق؟!

ستخفف أمي من أحزانها وقلقها أم تمضي بنا الدنيا إلى مصير محتوم؟!

ترى أمي أن حل كل المشكلات في زواج البنات . الزواج – فى بلادنا – محاط بتعقيدات تبدو بلا نهاية، أشعر بقرف وزهد تجاه فكرة الزواج ككل خاصة مع دوام الإلحاح عليها، فكل ما يتصل بالزواج يؤلمني، أنا والألم الشهري والقدر على موعد دائم لا ينقطع انتظامه، تأتيني عادة كل شهر بألم عظيم، وصداع مستمر، وألم آخر في العمود الفقري، أكاد أستشعر انفجارًا في المبيضين، خمسة أيام من العذاب كل شهر فكيف أتزوج!!

حين كان الأمر جديدًا ترددت كثيرًا قبل أن أصارح أمي، ذهبت بي للطبيب، ياللمرار المخجل رغم لباقة الطبيب المسن!

حرصت أمي على أن يكون ذهابنا للطبيب سرًا، احتاطت بأنها ستقول – إذا انكشف الأمر – إن المشوار من أجلها. حين أبدى والدي بعض الاستغراب قالت: عيب وفضيحة أن نذهب بالبنت لطبيب النساء قبل زواجها، مائة لسان ولسان سيذبحنا. أومأ أبي برأسه موافقًا ومحرجًا ومتضايقًا من عادات كئيبة لن يتخلص منها مجتمعنا قريبًا.

أخبرنا الطبيب ألا نقلق، وكتب "الروشتة" وأوصى بالاستمرار في تناول الدواء المطلوب، هذا يحدث لبعض النساء، الدواء عبارة عن "كبسولات" أحدثت خللًا وارتباكًا في راتب الوالد، استرحت وزالت الآلام المركبة شهرًا فآخر فلما امتنعت عن الكبسولات عادت الآلام بشراسة الانتقام الفظيع، اقتنعت أن أصبر فأن أصبر وحدي خير من أن نتعب كلنا.

كل الذين يقفون بشاطئي لا أجد منهم ما تسميه أمي "العريس المناسب".. انتهى أمرهم كلهم إلا ذلك الثقيل كالجبل المدعو "علي طمبة" .. أشتهر باسم طمبة لعمله فى السباكة، معجب بنفسه لدرجة خانقة، يتدخل – بجهله المقزز – فيما يعرف وما لا يعرف، تقدم أكثر من مرة، وسمع الرفض قاطعًا فى كل مرة غير أنه يصر على فرض نفسه متعللًا بالجيرة بشكل زيتي كريه.

حين أتجه للمدرسة صباحًا يرميني بكلمات يحسب أنه يكسب ودي بها، وأشعرها لاتلطخ نفسيتي فقط وإنما أيضًا ملابسي .

أجد روحي وراحتي مع الكتب، الكتب عالم كبير ودنيا واسعة، الكتب كالبشر منها الطيب والهادئ والساذج والعاقل والخبيث والدنيء وابن الناس وابن الـ......

عالم الكتب أكثر رفقًا ورحمة من دنيا البشر. يشهدون لى بالكفاءة التامة في عملي، ويحبني تلاميذي وأحبهم كأولادي، وحين أعود من مدرستي أجد أمي أمام التليفزيون، حريصة على تتبع أخبار السياسة، بمجرد دخولي تسألني مستوضحة عما جاء فى الأخبار، فأنا مصدرها الرئيس للمعلومات ومعلقتها على الأحداث وصانعة وجهة نظرها، تصر أن تعرف ما فعلوا في أمر العراق، وعن هؤلاء الذين يفتشون هناك عن أسلحة الدمار الشامل، وهؤلاء الذين يبتسمون و يتصافحون على الشاشات، من منهم مع مصر والعرب ومَنْ ضدنا.

أداعبها بأنها صارت خبيرة في الشئون السياسية العالمية والمحلية.

عليّ أن أستيقظ مبكرة للغاية، أصلي الفجر وأعد الإفطار ثم أرتدي ملابسي وأنزل لمواجهة الحياة، فالمدرسة الابتدائية التى أعمل بها تحتاج لركوب مواصلتين كي أصل في الموعد، تقدمت بأكثر من طلب للنقل لمدرسة قريبة وها أنا أنتظر.

مديرنا الأستاذ فواز الحسيني شخصية غير مستقرة، يحاول- دائمًا – صنع حاجز من الرهبة بينه وبين مَنْ بالمدرسة، ويقولون عنه – فى كلام الوساوس والأفواه التي تلتقم الأذان – إنه "أستغفر الله العظيم" منشار.

يحيرني أمره هذه الأيام، لست أدري ما يريد مني بالضبط، فجهاز الاستشعار الأنثوي غير مطمئن ويبدو في حالة دائمة من التوتر الحذر، أفهم الشخص من نظرات عينيه.

العين تعلم من عيني محدثها: إن كان من حزبها أو من أعاديها

حين تحدثت فى الإذاعة المدرسية عن نصر أكتوبر، واقترحت على تلاميذى أن يكون الموضوع هو الرئيس فى إذاعة الغد ، وكتبت مقالة عن الحرب وأبطالها فوجئت بالأستاذ فواز يأتيني – بعدها- في فصلي ليخبرني أنه أحد أبطال أكتوبر، وأخذ يحكي عن بطولاته والحرب وكيف أنه فعل كذا.. وأسرع بكذا.. هل الرجل يقصد شيئًا أم تراني واهمة!!

كل ما قاله ذكره كثيرًا في الاجتماعات فما الداعي لتكراره عليّ منفردة؟! وما الداعي لتعطيلي عن حصتي؟! الرجل كثير الكلام عن نفسه فى الاجتماعات، يجد متعة في الأمر تكلفنا جميعًا وقتًا وعنتًا.. في الاجتماع الأخير تحدث عن غياب أحد الزملاء لمرضه، وأظهر غضبًا ثم أتحفنا بمحاضرة عن ركب التقدم والنهوض بالعملية التعليمية، ولان صوته، وخلت أن عينيه مصوبتان إليّ وهو يقول:

- أنا لا أستسلم للمرض أبدًا، فمهما كان المرض قويًا فإني أتواجد في عملي، إذ إنني أقوى من المرض، فأنا - بحمد لله - أشعر بقوة شاب في العشرين.

(وأشار بقلمه إلى رأسه) والدليل أن شعري لازال فاحمًا لم تبيض منه شعرة ولم تسقط. في حين سقط شعر بعض الشباب هنا وابيض من البعض الآخر.

وانطلق ضاحكًا كأنه قال نكتة يطلب الضحك لها فيجامله البعض بضحكاتهم وابتساماتهم، وانفض الاجتماع وأنا أكاد أفكر في الانتحار في حين همست زميلة مغتاظة:

- صاحبك عايش لنا في دور المتصابي، رغم أنه مصاب بالسكر والضغط.

ياربي متى أنتقل من هذه المدرسة؟!

عدت للبيت مرهقة فإذا بالأخ "طمبة" جالسًا مع أمي وقد نال راحته كاملة وكأنه رب البيت. ما أن رآني حتى هب واقفًا، ترحيبه يشبه ضوضاء آلات التنبيه في السيارات في يوم حار مزدحم. اللهم ألهمني صبرًا من عندك حتى أستطيع صرفه بهدوء!!

أ- عـمـرو

عندما كنا طلابًا بالجامعة كانت لنا قيمة، إذ كان لنا عمل معروف.

طلاب!

أما وقد تخرجنا فلا قيمة لنا..حين قرأ أمين الشرطة بطاقتي في إحدى النقاط المرورية قرأها ساخرًا:

- حاصل على ليسانس!

ردَّها إليَّ وقد طفحت السخرية:

- خذ يا صاحب الليسانس.

حين كنت طالبًا ظننت – بسذاجة – أن من حقي أن أحب.

أنا وهدى رسمنا المستقبل معًا وكأنه قطعة من الصلصال، الحياة داخل أسوار الجامعة تمثل عالمًا مثاليًا حالمًا لا علاقة له بالواقع العملي خارجها.

كنت أعتقد أنني سأفعل – بعد التخرج – ما لم يفعله أبو الفوارس، العقبة الوحيدة تتمثل في الليسانس فإذا حصلت عليه فسأنطلق إلى السماء العالية..

هكذا قلت لهدى فصدقتني وتحدثت مع أبويها عني. أبوها رجل محترم.

و"محترم" هذه لها الكثير من المعاني والمترادفات النسبية في هذا العصر لعل منها: أن المحترم هو "الواصل" كثير الاتصالات والعلاقات، ومن يستطيع إدارة شبكة مصالح أو حتى يكون عضوًا فيها. تاجر كبير على علاقة بأحد أعضاء مجلس الشعب، اتفقت مع هدى أن أتقدم طالبًا يدها، ما أروع أن نكون مخطوبين وقد أوشكنا على التخرج، سيكون هذا دافعًا نحو التفوق!

تأملني والدها التاجر بنظرة متفحصة، أريبة، مريبة ثم حسب الأمر بهدوء، الامتحانات تقترب، وعد ابنته أن يفكر فى الموضوع إذا هي نجحت وتفوقت، أخبرتني هدى بذلك بعد أن صرفني الرجل بهدوء دون أن يعدني بشيء، كان يراودني الحلم عندما مات أبي.

الدنيا لا تساوي جناح بعوضة (كما قال الشيخ في خطبة الجمعة).. المدلل صار عاريًا في مواجهة دنيا لا مكان فيها ولا تعترف بالمدللين اليتامى.

إذن فقد تغير كل شيء، حصلنا على الليسانس، سعى والد هدى لابنته حتى حصل لها على وظيفة ثم عريس مناسب.

بكيت للمرة الأولى منذ تركت المرحلة الابتدائية، صرت عصبيًا أثور لأتفه الأسباب، أختاي تشتكيان مني مر الشكوى، عملت لفترة كمندوب مبيعات، العمل في المعمار يداوي ذكريات القصص الفاشلة والمشاعر الجريحة والدموع والأفلام العربية وليس الزمن وحده من يفعل، سرعان ما انتقلت للعمل عاملًا في مطعم ،طردت منه في وقت قياسي ثم ها أنا جالس على المقهى.

على المقهى أنسى كل الهموم، نطلب مشروبًا بسعر مضاعف مقابل أن نعيش مع أغاني "الفيديو كليب" الأجنبية العارية، أحيانًا تتحول الأغاني إلى أشياء أخرى.

هذا الولد "علي طمبة" لازال يتقرب مني، يجهد نفسه ليجد موضوعًا للكلام معي، يريد أن يكون صديقي، لا مانع من هذه الصداقة طالما يصر على دفع حساب المقهى، الوغد لا يريد الزواج من باتعة حبًا فيها وإنما طمعًا في راتبها..خسارة – وأي خسارة!- أن تتزوج باتعة ذات العلم والثقافة والأدب والرقة بهذا الوغد.

متى أتخذ قرارًا حاسمًا نهائيًا بقطع علاقتي بـ "طمبة" ومنع دخوله منزلنا!!

العاطل ليس من حقه أشياء كثيرة، وأنا لا أخسر من جهته، أحيانًا أقترض منه مبالغ لا أردها.

كل هؤلاء الجالسين على المقهى يحلمون بوظيفة، أي وظيفة، رغم أنهم يدركون جميعًا – أنه ليس من المنطقي أن يتحول الجميع إلى موظفين خاصة في ظل الرأسمالية العالمية.

حوَّل صبي المقهى إلى إحدى القنوات الفضائية الإخبارية الشهيرة.. المظاهرات تتوالى في كل بلاد الدنيا – تقريبًا - منددة بالحرب، وأمريكا تصر بغطرسة القوة الغاشمة على سحق العراق، نتمنى لو نفعل شيئًا ذا قيمة، المظاهرات في كل مكان، تحذرني أمى دائمًا من المشاركة خوفًا على ابنها الوحيد..سأنفجر إذا لم أهتف في هذه المظاهرة، قام بعضنا لينضم للجموع الهاتفة:

"الله أكبر.. الله أكبر.. ياعراق ياحبيب.. أبدًا شمسك مش هتغيب"

ارتفع هتافنا، وانشقت الحناجر غضبًا، وسال العرق غزيرًا، وحين عدت للمنزل كنت في ارتياح لم أشعره منذ تخرجت فى الجامعة، حين سألتنى دينا بقلق:

- ما الذي فعل بك هذا؟ وأين كنت؟!

انتبهت إلى أن ملابسى متهدلة، غارقة في العرق الممزوج بالتراب، أجبتها بقسوة غير مبررة، ثم دخلت فأخذت حمامًا دافئًا وخرجت للمقهى.. يتحدثون عن المظاهرة والحرب، قال أحدهم بحماس شديد:

- يا إخوانا، أنا محتار، إذا كانت الحرب قائمة قائمة، فلماذا يدمر العراق أسلحته ؟! لماذا يحطم الصواريخ "صمود2" ؟!

رد آخر موضحًا ومحاولًا أن يبدو أمام الآخرين الأكثر وعيًا وفهمًا دون أن يدرك أنه يردد نفس ما قاله أحد المحللين – منذ قليل – على إحدى القنوات:

- العراق يحاول تجنب الحرب أصلًا، وتدمير أسلحته يتم تحت إشراف الأمم المتحدة.

أصدر الأول بفمه ضراطًا قبيحًا وأشار إشارة أكثر قبحًا ثم هتف بسخرية:

-الأمم المتحدة!! هذه ذقني إن لم تقم الحرب، وإن لم تكن الأمم المتحدة هذه تدمر أسلحة العراق خدمة ومجاملة لأمريكا.

حديث السياسة والحرب وأمريكا والعراق وصدام حسين وأسلحة الدمار الشامل هو المسيطر على أحاديث الناس هذه الأيام.

تسآلت حائرًا:

- ماذا سيكون موقفنا إذا قامت الحرب؟!

ثارت زوبعة من المناقشات والجدالات، تضايقت من طريقة المناقشات فتركت المقهى وانصرفت.

2 - باتـــعـــة

في حياتي قصة حب لم تكتمل، دفنت القلب حيًا ينزف رغم براءة القصة، حسان كان زميلًا جاء للمدرسة كي يعمل بالأجر، حديث التخرج، مبهر بأسلوبه السلس وثقافته الرفيعة وخفة ظله.. بدأت معرفتي الوثيقة به حين رأى معي رواية "سارة" (الرواية الوحيدة التي كتبها العقاد) فقال مشاكسًا بابتسامة هادئة:

- أتعرفين يا أستاذة باتعة أن العقاد ذكر – على لسان إحدى شخصيات الرواية التي بيدك – أن المرأة لا تقرأ إلا عن رجل أو بسبب رجل!!

ابتسمت قائلة بحماس:

- لا تنس تحامل العقاد الشهير على المرأة.

انطلقت منه ضحكة صافية موافقة على ما أقول، وتعددت مناقشاتنا وجلساتنا، لم يغازلني بشكل صريح، لكني أعرف وهو يعرف أني أعرف أنه أحبني وأنا كذلك، العيون لها لغة خاصة جعلت أمير الشعراء يهتف:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت : عينيّ في لغة الهوى عيناك

وحتى حين لا تتعطل لغة الكلام، فإن الكلام لا يكون كالكلام وعندما حكى لى حسان ظروفه علق بسخرية مريرة كأنه يعتذر:

- أي إنني عندما أكون صالحًا للزواج سأكون في الأربعين.

وبلغة العيون اتفقنا أن نعيش قصتنا ونستمتع بها حتى يقضي الله أمرًا لابد سيكون، لكنّ الحياة الجافة تتجهم دائمًا للمحبين، فقد ثارت أقاويل عن جلساتنا معًا رغم أنها أمام الجميع، وليس فيها ما يخجل، تنهد قائلًا بحسم مرير:

- طالما أننا لسنا متأكدين أننا لبعضنا فلا داعي لهذه الجلسات البريئة.

تاهت لغة العيون فقلت بحزن:

- هل نفعل خطًأ؟!

- أخاف عليك.

طأطأت رأسى وشعرت باحمرار وجهي وأنا أهمهم:

- سأنتظرك.

كاد يبكي وهو يرد:

- أشفق عليك.

رغم أننا لم نعد نجلس معًا، ولم تعد الصلة بيننا إلا مجرد زمالة كالتي بين الجميع إلا أن شائعة ارتباطنا ظلت تنتشر رغم أنفينا و نفينا وتأكيدنا على أننا أخوة وزملاء.

استدعاني الأستاذ فواز، ابتسم، آه من هذه الابتسامة التى تشع اصفرارًا، لا أتوقع خيرًا من هذه المقابلة المنفردة في مكتبه..قال كلامًا متميعًا يحتمل أكثر من معنى يثير القلق في أكثر من اتجاه، ثم سألني مباشرة:

- ألم يلفت نظرك أحد من شباب المدرسة؟!

هتفت مستنكرة:

- شباب المدرسة!! من أي ناحية؟!

أشعل سيجارة ورمقني ماكرًا، شعرت أنه سيقول "اطلعي من دول" إلا أنه قال:

- بعضهم غير متزوجين، وأنا أتمنى لك الخير كما تعلمين .

استطعت أن أكظم غيظى بصعوبة، ما له هذا الشخص بي! وهل لمجرد كونه رئيسي المباشر في العمل يتدخل في شئوني بهذه اللزوجة الكريهة؟!

قلت وقد تصاعد الغضب في صوتي:

- ماذا تقصد يا أستاذ فواز؟

أجاب بسرعة كأنه ينتظر هذا السؤال:

- حسان ولد محترم ومثقف مثلك إنما أنا.....

قاطعته متجملة بصبر غاضب:

- يا أستاذ فواز، الأستاذ حسان مثل أخي عمرو تمامًا وكل السادة أعضاء هيئة التدريس أعتبرهم كذلك.

استأذنت منصرفة بضيق شديد، حكيت ما حدث لحسان فبدا الكرب على وجهه ثم قال كأنه يحدث نفسه فقط:

- يبدو أنني سأجلب لك المتاعب، وأنا مجرد مدرس بالأجر هنا.

دون أن يخبرني بشيء فوجئت به بعدها – بعدة أيام – قد جاء إلى فصلى قائلًا بابتسامة معتذرة:

- أتركك بخير يا أستاذة باتعة، إنني سأنتقل منذ اليوم للعمل في مدرسة أخرى.

بهت، سألت مأخوذة:

-كيف يا حسان؟!

طأطأ إلى الأرض وهو يقول كأنه يقاوم البكاء:

- تبادلت المواقع مع زميل آخر بالأجر مثلي، تعلمين سهولة هذا الإجراء بالنسبة لمن يعملون بالأجر.

لست أدري كيف انتهى هذا اليوم الدراسي..

يا ربي! هل سأراه مرة أخرى؟!

هل سأجد مثله؟!!

انفردت بكراسة خواطرى أبكي على صدرها..

لماذا ياسيدي الجميل خنقت القصة الرقيقة البريئة؟!

لم استعجلت يا أميري الجميل؟!

أما كانت تذوي وحدها وتموت، فلما استعجلت!! أيها الملائكي الجميل، شكرًا لك على كل لحظة خارج حدود الزمن قضيتها معك.

خرجت للحمام فتوضأت، حين كنت أعد الطعام ناديت دينا كي تساعدنى، تعللت بمذاكرتها، أعرف أنها لا تذاكر – حقيقة - إلا عندما يقترب الامتحان كي تحصل على تقدير "مقبول".. جلسنا للطعام فتشاكس عمرو ودينا، فضت أمي المشاكسة بصوت متألم، فتح عمرو التليفزيون.. تصاعد الاعتداءات الصهيونية على زهور بيضاء بريئة، ألا يفهم الصهانية سوى لغة القتل والخراب والدمار والسجن!!.. قام أحد الملائكة بعملية استشهادية.. الحرب على العراق ستقع لا محالة ولا مفر.

أحد المتعالمين جلس أمام الكاميرا في ذلك البرنامج – بكرشه الضخم ولغده المتعاظم وبسمته البلهاء، يتجشأ كأنه أكل بشراهة بالغة قبل أن يأتى للبرنامج - يقول بأن العمليات الاستشهادية ضد الصهاينة لا معنى لها ولا أهمية ولا تعد من قبيل النضال لتحرير الأرض.

تنهدت غاضبة، طالبو المصلحة يتاجرون بكل شيء، حتى الشرف والعفة ودم الشهيد ودموع اليتامى وخفر العذارى.. قلت متأففة ساخرة بغيظ وقد تركت الطعام:

- المعنى والأهمية والنضال المقدس إذن فيما يفعله الصهاينة، أما إن تأوه الجريح أو رفع المظلوم يده مدافعًا عن نفسه فلا معنى لما يفعله.

ضحكت دينا من ثورتي قائلة:

- مهلًا يا أختي العزيزة، سينفجر أحد عروقك، هذا رجل يخرف، فهل ستجعلين عقلك مساويًا لعقل واحد مخرف!!

ب - عـمـرو

الدول تحذر رعاياها في العراق والدول المجاورة لها من مخاطر الحرب المحتملة وتنصحهم بالعودة لبلادهم. يبدو أنها لن تكون حربًا عادية. حنانيكم أيها الأمريكان!!

حضر بالأمس من الكويت المهندس خالد زكريا ابن عم والدي، يعمل هناك منذ سنوات استطاع خلالها تكوين ثروة لا بأس بها. تلح أمي وترجو أن أذهب كي أسلم وأصافح وحمدًا لله على السلامة يا خالد بك. والله إن أمي هذه طيبة بالفعل. لا تدري المسكينة أن صلات القرابة قد صارت مجرد عبء. لقد التقيت بهذا الرجل من قبل، مجرد آلة صماء لجمع المال. لو قال له أحدهم:

"صل على النبي" فسيسأل: بكم دينار؟!

قالت أم] متوسلة:

- يا ولدي. لا يعنينا ماله. ولكنه ابن عم والدك. فاذهب من أجل صلة الرحم وعظام القبر.

قلت بعناد:

- هذا الرجل لم يزرنا. ولم يقف بجوارنا فى أي مشكلة مررنا بها في يوم من الأيام.

- ياولدي، الدنيا تلهي أهلها، والرجل مسافر باستمرار.

- لن أذهب، فقد يعتقد أنني أزوره لمجرد أن يعطيني هدية من الهدايا التي يوزعها على أحبابه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، يا ولدي، لابد أن يذهب أحدنا، وأنا مريضة وأنت الرجل.

قلت حتى أتخلص من هذا الإلحاح:

- حاضر يا أمي، سأذهب، لكن من أجل خاطرك فقط.

خرجت للمقهى، جلست وحدى منزويًا بأحد الأركان، كلما خفّت نوبات الإحباط أبدأ من جديد في البحث عن عمل.. ماذا لو أسافر للخارج!!.. هذا الوقت آخر وقت يمكن التفكير فيه بالسفر، فالمسافرون يرجعون أوقات الحروب، خالد زكريا محترف السفر – الذي إذا عاد إلى مصر شعر بالغربة – عاد مع من عادوا خوفًا من الحرب.

مهلًا! إن هذا الوقت هو المثالي للتفكير في السفر، فالكل يهرب تاركًا أعماله، الأعمال موجودة تحتاج لمن يقوم بها والأعمار بيد الله وحده، ماذا لو عرضت على خالد، أقصد عمي خالد أن يأتيني بعقد عمل في الكويت!!

هو قد سافر كثيرًا وله خبراته ومعارفه ولن يصبر على البقاء في مصر طويلًا، وبمجرد نهاية الحرب فإنه سيعود مرة أخرى، وساعتها سيسهل عليه أن يرسل إليّ بالعقد، سأعده وأقسم له بأغلظ الأيمان أنني لن أدّخر لنفسي دينارًا واحدًا ولن أرسل لأمي شيئًا حتى أرد له ثمن العقد، سأرده بفائدة إن كان يريد ذلك و......

يا لسذاجتك يا عم عمرو!!

خالد؟!

خالد يساعدك ويبحث لك عن عقد عمل! بل ويدفع لك ثمنه ويصبر عليك حتى تعمل وتسدد له!!

خالد! لو وجدك جنيهًا فسيحبسك في خزانته فورًا غير مأسوف على شبابك.. لو فاتحته في موضوع كهذا سيحرجني بالتأكيد.

يحرجني!!

ما هذه البلاهة ياعم عمرو! فليحرجك!!

اعرض عليه أمرك، والإحراج والمواقف الصعبة وخيبة الرجاء كلها أمور تعودتها وصارت مألوفة ككوب الشاي الذي تحتسيه في هذا المقهى.

حاول يارجل، فالرجل عمك، والمثل الشعبى يقول!

"لايخرج الظفر من اللحم والدم لا يصير ماءً"

ستظل ساذجًا غريرًا طوال عمرك يا فتى، ففي هذا الزمن يخرج الظفر من اللحم والدم يصير ماءً بسهولة بالغة.. العدوان على العراق سيتم بمباركة بعض الدول العربية وقلة حيلة البعض الآخر.

لا داعي لهذا اليأس والقنوط يا عمرو، اذهب للرجل، الأمر يستحق المحاولة، ومن يدري؟!

3 – بـاتـعـة

أقف هذه الأيام – على أطراف أعصابي، فأنا المسئولة – وحدي تقريبًا – عن تنظيم وإعداد فقرات حفل عيد الأم الذي تقيمه المدرسة كل عام.

العذاب الشهري يهاجمني بضرواة، حاولت الاعتذار عن عدم تنظيم وإعداد الحفل غير أن الأستاذ فواز حاصرني بروحه اللزجة حتى لم أجد خلاصًا إلا بالموافقة، تعبت كثيرًا في العام الماضي وتعب معي التلاميذ، وأثنى الضيوف على الحفل، وقالوا كلامًا سعد به المدير كثيرًا حتى أخذته نوبة من الشهامة وأعلن عن صرف مكافأة لي ولتلاميذي وارتفع التصفيق عاليًا، وإلى الآن ما رأينا شيئًا.. لابد أن أذهب للطبيب حين أحصل على مكافأة الامتحانات ولكن أين هي الآن ولازلنا في شهر مارس!!

أعود للمنزل بأطنان من الإجهاد، عمرو ودينا لا يكفان عن الشجار، عمرو ذهب لزيارة قريبنا الذي عاد من الكويت فطلب منه عقد عمل، حين عاتبته أمه ثار وهاج وأخذ يدخن أمام والدته المريضة، حاولت دينا إثناءه فكاد يفتك بها، رجوته أن يرحمنا مما يفعله فترك البيت وانصرف، دينا تتابع إحدى أغنيات "الفيديو كليب" تتمايل - مع الإيقاع الراقص للأغنية – بميوعة، أخاف عليها من سطحيتها، قد يجذبها أي شيء براق، طالبتها أمها بتغيير القناة كي نعرف آخر الأخبار، فعلت على مضض وهي تتأفف معترضة.. لا زالت

المظاهرات في أماكن عديدة تعلن رفض الحرب على العراق.. أشعر أنني كتلة من قلق، اللهم عفوك. السيد علي "طمبة" لا يعرف اليأس، فوجئت بأمي تنصحني بأن أنظر إليه بشكل حيادي، وأن أعيد التفكير في الأمر، فربما لم يكن سيئًا كما أتصور.. تلمح أمي بحزن عميق إلى عنوستي المحتملة، قال حسان: كل حب لا يقترن بالعقل حب غير سوي، ونسي أن يقول: كل زواج يتم بدافع الخوف من العنوسة فاشل قبل أن يبدأ.

***

الأربعاء 19 مارس 2003

كتبت في كراسة خواطري: " في هذا اليوم تعرى العالم عن وجهه القبيح، وقد خلعت شريعة الغاب كل ملابسها وكل أقنعتها بلا حياء معلنة التحدي، المحللون العسكريون يؤكدون أن ضحايا الحرب سيزيد عددهم عن مليون قتيل وجريح، وستجرّب أسلحة تم تطويرها حديثًا، فالأمر لن يكون حربًا بالمعنى المفهوم، جيش وجيش، وإنما مجزرة حقيقية، جزار وذبيحة.. الإنسان نجح نجاحًا مخيفًا فى تسخير التكنولوجيا لكل أغراضه تقريبًا غير أن الروح قد غارت فى الوحل وتاهت في دياجير غابات ما قبل التاريخ

أيقظتني أمي فجرًا بفزع:

- منهم لله! ضربوا العراق حسبنا الله ونعم الوكيل.

استمعت أمي للخبر من إذاعة القرآن الكريم، انحلت أعصابي لم تستطع أمي أن تصلي الفجر واقفة كعادتها، ساعدتها حتى توضأت وصلت الفجر جالسة على سريرها،

لاتكف عن الدعاء.

صليت الصبح لا أدري أركعة أم ثلاثًا!

تنازلت دينا – في هذا اليوم – فأعدت الإفطار، جلسنا جميعًا وقد فقدنا الشهية، ارتديت ملابسي وخرجت للشارع، كل شيء يبدو كما كان بالأمس ولكن المرار والأسى والشعور بالخزي قد سرى في روح كل شيء، حين وصلت للمدرسة لاحظت أن الجميع قد حضروا مبكرين على غير العادة.. واجهني التلاميذ بعاصفة من الأسئلة الواعية والساذجة، الكل يتحدث والمرارة هي القاسم المشترك، خطب الأستاذ فواز – في الطابور – وأنهى خطبته بقوله:

- تضامنًا مع إخواننا في العراق، فقد قررنا إلغاء حفل المدرسة هذا العام.

قراره لم يثر فينا أي انفعال سوى الصمت الموافق، حتى التلاميذ الذين كانوا في شوق إلى الحفل صدر عنهم ذلك الصمت الموافق.. قال الأستاذ فواز بمرارة:

- أقسم بالله، أنني ما أفطرت حزنًا على العراق.

جاوبه البعض يؤكدون أنهم كذلك ثم طرح أحدهم سؤالًا إن كان العراق سيصمد كثيرًا فأجابت إحدى الزميلات الشابات:

- العراقيون أصحاب حق، يدافعون عن بلادهم، لذا فلابد أن يكون صمودهم حتى آخر قطرة دم، وألا يجعلوا من وطنهم لقمة سائغة للغزاة.

تدخل الأستاذ فواز:

- يا أستاذة هذا كلام جميل يصلح لموضوع تعبير، أما الواقع فغير هذا تمامًا.

صمتت محرجة، هتف أحد ماسحي الجوخ للمدير:

- مضبوط يا أفندم، كلام حضرتك مضبوط تمامًا، الواقع يختلف عن موضوعات التعبير، ولكن ما هي رؤية سيادتك لهذا الواقع؟!

عاد الأستاذ فواز يتخذ موقف الخطيب المفوه:

- أمريكا أقوى وأعتى قوة في العالم، بالإضافة إلى أن اقتصادها هو الأول عالميًا، وعندما تجتمع قوة العتاد والمال على دولة مسكينة هدتها الحروب وأنهكها الجوع فإن الأمر لن يستغرق عدة ساعات وتسقط العراق نهائيًا.

واصل صاحبنا إياه هتافه:

- تحليل رائع يا أستاذ فواز.

لاحظت أن هذا الحديث يتم على مسمع ومرأى من التلاميذ الذين أدوا تمارين الصباح بآلية عجيبة، وقد طأطأ بعض الزملاء رءوسهم في استسلام لتحليل المدير فقلت معلقة:

- لكن أمريكا القوية هذه منيت بخسائر رهيبة في حرب فيتنام، وفيتنام دولة لم تكن ظروفها تختلف عن ظروف العراق.

انتبه لي البعض فاستطردت:

- ثم إن أمريكا المخيفة هذه لم تستطع أجهزة مخابراتها العاتية ذات الصيت الذائع منع هجمات 11سبتمبر التي كانت ضربة قاصمة لكبرها وغرورها.

بدا الأستاذ فواز لا يدري شيئًا عن حرب فيتنام، وزاد حرجه من مخالفتي لتحليله العظيم فنظر إليّ مغيظًا هاتفًا:

-لقد انتهى وقت الطابور أيها السادة، هيا كل أمام فصله، ودعكم من السياسة والحروب، فنحن في مؤسسة تربوية.

جـ - عـمـرو

قامت الحرب، الإنسان حيوان محارب، هل عاشت البشرية فترة ما بلا حروب ؟!

لست أدري من قال إن التاريخ ما هو إلا سلسلة من الحروب، هذه الحرب غير شريفة على الإطلاق، كان لأمريكا أن تتخذ أي سبيل لتشرب كل بترول العراق دون اللجوء إلى حرب شعواء كهذه، كل احتلال يعلن – للعدوان – أسبابًا شديدة السخافة لا تقنع أحدًا، ومع ذلك تبدو براقة لمن يريد الاستماع لها واحترامها والهتاف بعظمة المحتل.. أسلحة الدمار الشامل نكتة سخيفة للغاية، والأسخف خالد زكريا.

السيد خالد استقبلني بترحيب وتهليل وصخب في عدة ثوان، ثم انصرف عني بسرعة إلى ضيوفه الذين يجلس وسطهم كملك متوج، يمارس دور المحلل السياسى والمتحدث البارع، يحكي عن الحروب وأسرارها، يبدو أنه كان مع القادة الأمريكان، ومع قادة العراق أيضًا يناقشهم ويوبخهم على أخطائهم ويضع لهم الخطط العبقرية، ثم انتقل بالحديث عن رحلاته ومواقفه وكيف وقف مع المصريين الذين تعرضوا لمشكلات، وأنه الخدوم الذي يغيث كل ملهوف، وكيف أن فلانًا وفلانًا وفلانًا أمثلة حية على الخسة والضعة والخيانة والفشل، ومن حوله يصدقونه – أو يتظاهرون بتصديقه – وكأن ما يقوله آيات منزلات.

حين عرضت عليه أمري كانت مبرراته أكثر أناقة وأفضل ترتيبًا من مبررات الأمريكان للحرب على العراق، قال كلامًا كثيرًا فهمت منه أن زيارتي خائبة، أقنعني الرجل ولست أدري بم أقنعني أو كيف، خرجت من عنده يداخلني شعور عميق بأنه ألبسني طرحة أو سقاني شيئًا أصفرًا، لفني وطواني ورماني في جيبه.

عدت للمقهى، الأمم المتحدة تنام مستريحة بشخيرها العالي في جيب القطب الأوحد، سحبت كرسيًا وجلست أرقب الجميع، الإحباط يسيطر على الكل، حين سقطت الصينية وعليها أكواب المشاريب أحدثت دويًا عاليًا.. فزع الكل، وانتفض معظمنا واقفًا وقد هتف صاحب المقهى مأخوذًا: "حي"!

ثم تمالك نفسه فصرخ في الصبي وصب عليه عاصفة من اللوم، هدأ فطمئن الناس، وعاد إلى الصبي فأمره بإغلاق التليفزيون.

عدت للبيت فألفيت أمي وحدها أمام التليفزيون، ما أن رأتني حتى صاحت كأنها تستغيث:

- القصف يا عمرو، يقصفون العراق الآن، يقتلون الناس، يخربون البيوت.

قلت مشفقًا عليها:

- ستموتين طالما أنت جالسة هكذا أمام التليفزيون.

- جف ريقي، ناولني كوب الماء.

سقيت أمي وأنا أتعجب من هذه السيدة الأمية المسنة ومن متابعتها المستمرة للأخبار وخوفها وقلقها الدائمين ودعائها المستمر بأن تتوقف هذه الحرب.

حاولت التخفيف عنها فقالت مداعبًا:

- مالك خائفة هكذا، لن يقتلوك أنت، فالحرب هناك فى العراق وليست هنا.

- العراق دولة عربية ومسلمة يابني.

- هل كانوا من بقية أهلك؟!

- من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

الطعام، شعرت بالصداع فدخلت غرفتي، بعد قليل جاءت باتعة وأعدت الطعام، شعرت بتقزز من حديث الأكل.. هذه الأيام، إذا خرجت للمقهى هاجمني الملل والرغبة في البكاء، وإذا عدت للمنزل أكلتني الكآبة وإذا بحثت عن عمل عدت بالإحباط، حين كنت راقدًا – بلا نوم – سمعت بوضوح صوت مظاهرة، مظاهرة يقوم بها أطفال، ارتديت ملابسي وخرجت للشارع لا ألوي على شيء، قادتني قدماي إلى المقهى.

السأم غدا عادة العادات، أوراق "الدومينو" ألقيها بلا بحماس، أعرف الورقة التي سيلقيها صاحبي، أكشف له أوراقي، أبعثر كل الأوراق بقرف شديد، لا يبدو غاضبًا.. قناة إخبارية شهيرة تذيع حوارات مع بعض المحللين، ما هذا العته الذي نسمعه؟!

أحدهم بصق على الشاشة بضيق:

- كلاب ! بهائم !

- مصر دائمًا مستهدفة.

- مصر لا يمكن أن تفعل ذلك أبدًا.

- هل يمكن أن يكون ما يقولونه صحيحًا؟!

- لا أحد يعرف أين الحقيقة.

- الشائعات تكثر بشدة في أوقات الحروب.

- هذه حرب نفسية.

شعرت بوجع شديد في أسناني رغم أنني لم أشك منها من قبل، غيروا الشاشة إلى قناة أخرى، تناسيت آلامي بالأغاني الأجنبية التي تذيعها قناة عربية، هناك أناس لا تعنيهم هذه الحرب ولا تؤثر عليهم بشيء وآخرون سعداء بها.. انتهت الأغانى الأجنبية فأذاعوا "كليبات" عربية عارية لا تختلف عن سابقتها كثيرًا.. انتهت فغيروا إلى قناة أخرى.. العاصمة بغداد تتعرض لقصف شديد في هذه اللحظة.. قمت مغادرًا المقهى، مشيت كثيرًا، حفظت كل تفاصيل هذه الشوارع، شاهدت واجهات المحلات التي سأمتني، واصلت السير حتى وصلت للسينما، لم يتغير العرض، بائع الجرائد قريب من السينما، أعطيته مبلغًا صغيرًا مقابل أن أتصفح بعض الجرائد.. آلاف الطلعات الجوية كل يوم لضرب المدن العراقية.. الكل يطالب الرئيس الأمريكي بوقف الحرب.. إشادات بالصمود العراقي.. المظاهرات تتجدد في دول وأماكن كثيرة.. إسرائيل تشن غارات مماثلة على الفلسطينيين.

طويت الجرائد وأعدتها لصاحبها، واصلت السير، عدت للبيت، أمي مزروعة أمام التلفزيون تواصل ذبولها نسيت أن أسأل باتعة عما يقولونه في القناة الإخبارية الشهيرة التي تهاجم النظام المصري.. مسيرة ضخمة تندد بالحرب تمر بأعداد تتزايد باستمرار، لا أستطيع الدفاع عن العراق ولكني أستطيع السير والهتاف في هذه المظاهرة.

4 - باتـعـة

المنغصات والمعكننات ومفجرات المرارة صارت قوام الحياة، أتاني بعض التلاميذ يسألون مصدومين:

- هل صحيح يا أستاذة، أن مصر سمحت بمرور بوارج بريطانية وأمريكية من قناة السويس متوجهة لضرب العراق؟!

صدمني السؤال فأجبت بغيظ:

- لا تصدقوا كل ما تسمعونه خاصة في أوقات الحروب، فهناك قوى حاسدة حاقدة يهمها بشدة إثارة البلبلة وزعزعة الثقة بين البلدان العربية، وهي ثقة معدومة من الأساس.

انضم إلينا الأستاذ رمضان معلم العلوم قائلًا بخفوت:

- لقد سمعت هذا الخبر أكثر من مرة.

لم أجد ما أقوله غير أن المسئولين سيوضحون الأمر وسيردون علي هذه الأكاذيب ويفندونها.

عدت للمنزل يهاجمني الغثيان، كانت أمي نائمة، أغلقت باب غرفتها ومشيت للتليفزيون بحذر حتى لا أوقظها، أشعلت الجهاز مخفضة صوته قدر الإمكان.. تصريحات نارية من الجانب الغاشم تقابلها تصريحات أكثر نارية من الجانب المدافع عن وطنه.. سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي يرتدي ملابس الحرب، ويعقد مؤتمراته الصحفية

بين وقت وآخر، يهدد الأمريكان بنبرة واثقة من النصر ويصفهم بالمرتزقة والعلوج، لهذا يصفونه – ساخرين – بخفة الظل، أغلقت التليفزيون، عمرو بالخارج كعادته ودينا ستتأخر لتعدد محاضراتها اليوم، بدلت ملابسي وتوضأت فصليت الظهر، لا رغبة لدي في الطعام خاصة مع غياب الجميع، عدت لإشعال التليفزيون، أحد أساتذة القانون الدولي يعترف بمرور سفن وبوارج أمريكية وبريطانية من قناة السويس لضرب العراق، ولكن المواثيق والقوانين الدولية تنص على أنه ليس من حق مصر منع أي سفينة من المرور فى القناة سواء كانت أغراض السفينة عسكرية أم غير عسكرية إلا إذا كانت مصر فى حالة حرب مع الدولة صاحبة السفينة.. نحن فقط من نلتزم بالمواثيق والقوانين خاصة إذا كانت في غير صالحنا، الكبار لا تعنيهم هذه القوانين إلا بقدر ما يستفيدون منها، خبير آخر وأستاذ فى القانون الدولي يصر بحماس ممزوج بالمرارة أن مصر بإمكانها منع البوارج الحربية من القناة، فملكيتها مصرية مائة فى المائة، ولكن مصر سمحت بمرور سفن أمريكا لأغراض سياسية فلا أحد يريد أن يدخل نفسه فى مشكلات من أي نوع مع القطب الأوحد.. كان أبي قد اشترى بروازًا يحمل عبارة "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا" ذابت خيوط البرواز فسقط دون أن يحدث صوتًا فلم تستيقظ أمي من نومها، أغلقت التليفزيون شاعرة بدوار، دخلت للحمام ثم خرجت بلا فائدة، الصداع النصفى يكاد يمزق رأسي، ربطت رأسي، ليس هذا وقت العذاب الشهري فمن أين تأتي جحافل هذا الصداع الغشوم!!

حاولت تناسي الصداع فأمسكت بكتاب، السطور ملتهبة، ملتوية، والحروف متشنجة لم أفهم منها شيئًا، ألقيت بالكتاب وعدت لفتح التليفزيون، هروب من الرمضاء للنار.. إسرائيل تواصل إساءة

استغلال ظروف الحرب وارتفاع غبارها إضرامًا للعذاب والقتل والهدم والتجريف والاعتقال والحرمان، أسرعت فأغلقت التليفزيون، لم يعد عمرو بعد، أصبح يسير – هذه الأيام – هاتفًا في أي مسيرة أو مظاهرة، يكاد يقتلني القلق عليه من هذه المظاهرات، أخفى الأمر عن أمي، جاءت دينا، تلح في طلب الغداء، لابد أن ننتظر حتى يرجع عمرو، فهو رجل البيت، لكن الوقت ينصهر ولم يعد، استيقظت أمي، توضأت وصلت ثم تسمرت أمام التليفزيون تنتظر عمرًا.. الجانب العراقي صلب صامد، يعلن مقتل وإصابة عدد من المعتدين، هذا الصمود يثير الإعجاب والإكبار والاهتمام، لم يعد عمرو بعد، القلق يساور الجميع، أبدت أمي سعادة مؤقتة حين أخبرتها أن فلاحًا عراقيًا بسيطًا أسقط طائرة معتدية، لا تفتأ أمي تذكر عمرًا، أحاول تغيير مجرى الحديث، تناولت دينا طعامها، ومضغت بعض اللقيمات على مضض، قمت لإعداد دروس الغد، لم يعد عمرو بعد، غسلت بعض الملابس وكويت الأخرى، طمئنت أمي بأن عمراً ليس صغيرًا وليس له مواعيد حتى استسلمت لنوم مريض، أين تراك ياعمرو؟!

نهضت أمي مفزوعة هاتفة:

- ابني.. ابني!

أسرعت إليها فسألتني بجزع:

- هل عاد أخوك؟

- ....

قالت دينا بعصبية:

- سيعود حتمًا يا أمي، هو هنا أو هناك مع أصحابه.

- شوفي الولد يا باتعة.

ردت دينا مستنكرة:

- تشوفه!!

- نعم يا بنتي.

- هل نبحث عنه؟!

- نعم، سلي عنه علي طمبة، خذي أختك، واذهبا للمقهى، وإلى أي مكان، ابحثا عن الولد.

بذلت جهدًا لتهدئتها، خرجنا بالفعل، وصلنا للمقهى، يا للحرج!!

تقدمت دينا متسائلة، عادت بالنفي، علي "طمبة" لا يعرف، راح يرغي ويزبد بكلام لم أهتم به، لا نعرف له أصدقاءً، عدنا للبيت، صارت أمي قطعة من جمر محترقة حارقة، ولولت، حاول بعض الجيران تهدئتها، طلبت من دينا أن تصنع شايًا للضيوف، خرجت مرة أخرى، ناداني الحاج إسماعيل صاحب المقهى، أخفض صوته:

- يا بنتي، أخوك عمرو كان فى الأيام الأخيرة كثير السير في المظاهرات، ومظاهرة اليوم اشتبك معها رجال الشرطة، وتم القبض على بعضهم، ومن ضمن المقبوض عليهم عضو في مجلس الشعب، وأعتقد أن عمرًا منهم و....

خفق قلبي بعنف:

- هل أنت متأكد يا عم الحاج؟!

- فرج ربنا قريب يا بنتي، وربما أفرجوا عنهم اليوم أو غدًا. شكرته وعدت للبيت مسرعة، الضيوف جاملونا بكلمات المواساة ثم انصرفوا، بقى علي "طمبة" يعيد ويزيد في الكلام عن قلقه على عمرو وكيف أنه طالما نصحه بالبعد عن المظاهرات والسياسة والكلام

الفارغ.. وددت - في هذه اللحظة – لو صفعته على وجهه، خرجت أجري لا ألوي على شيء، وصلت لقسم الشرطة، وقفت بالقرب من الباب الرئيس بخوف وتردد، اللهم أعني على دخول هذا المكان، طوال عمري أخاف من عسكري المرور، قرأت آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين، حسمت أمري ونويت الدخول، اقتربت من الباب أكثر، أحد الذين يرتدون الملابس العسكرية اعترض طريقي يسألني عما أريد، أجبته بكلام غير مرتب وقد بدا الخوف في صوتي، ظهر التوتر ممزوجًا بالامتعاض على وجهه وهو يقول:

- مظاهرة!!

لم أدر ما أقول، وقفت صامتة يكاد القلق يأكلني، رثى لحالي فقال وهو ينظر إليّ متوترًا:

- ادخلي للسؤال بالداخل.

دخلت وقد زاد خوفي وتضاعف قلقي، غرفة كبيرة مكتوب على بابها "المأمور" نظرت بداخلها بعد تردد طويل، وقع بصري على مجموعة من الضباط، بالتأكيد يجلس المأمور في الصدارة وهو الأعلى رتبة، بعض أمناء الشرطة يقفون حول الضباط.. تقدمت أقدم رجلًا وأؤخر الأخرى، جف ريقي، شعرت بقلة الحيلة، عدت أتلو أية من القرآن حسمت أمري، جهزت ما سأقوله وهممت بالدخول، انسد الباب فجأة وأحدهم ينهرني:

- أنت يا ست أنت!

التفت لأرى عسكريًا ضخم الجثة يتابع صارخًا:

- إيه! فاكرة نفسك داخلة إلى مقهى، ورشة، طابونة؟!

ارتبكت تمامًا، ومضى وقت حتى استطعت السيطرة على أعصابي، ثم تحدثت عن أخي.

بدا مستمتعًا بارتباكي ثم قال ساخرًا:

- آه ! أخوك هذا فاكر نفسه فتوة أم بطل سينما؟! أم يعيش في دور الزعيم المناضل؟!

لم أرد فقال آمرًا:

- قفي هنا.

وقفت صامتة أنتظر فتابع ناهرًا:

- قلت قفي هنا.

- ها أنا واقفة.

كنت أقف أمامه مباشرة في الظل فأشار بغطرسة إلى الشمس:

- بل قفي هناك.

وقفت حيث طلب، ثم رحت أتوسل إليه أن يسمح لي بالدخول للسؤال عن أخي، هرش في رأسه ثم قال ساخرًا:

- أسمح لك بماذا يا أبلة، هل تظنين نفسك في مستشفى!! وحتى المستشفى لها أصول.

فكرت هل أعطيه شيئًا أم لا.. غامرت بأن فتحت حقيبة يدي والتقطت منها مبلغًا، وبالغت في التلفت حولي ثم دسست المبلغ في يده فإذا بملامحه تنبسط وقال بصرامة مباغتة:

- ادخلي للسؤال.

دخلت إلى مكتب السيد المأمور.. عيون كثيرة متسائلة ومستنكرة مصوبة نحوي كأنني ارتكبت جرمًا بمجرد دخولي لمثل هذا المكان، زاد ارتباكي وابتلعت ريقي ثم سألت:

- من فضل سيادتكم، سأعطلكم دقيقة واحدة فقط، هل جيء بالشباب المقبوض عليهم فى مظاهرة اليوم إلى هنا؟!

شعرت بأني فريسة سقطت بين مخالب ألف مفترس، العيون تخترق جسدي بعنف، هذه النظرات المتوجسة قاتلة بلا شك، منتهى أملي أن أخرج من هذا المكان، كادوا يقتلونني فعلًا بهذا الصمت المتجاهل وهذه العيون المرعبة، تنحنحت ثم كررت السؤال عدة مرات، ولم يجبني سوى الصمت المتجاهل، بدأ العرق يغمرني والارتباك يضع غشاوة على عينيّ ولم أدر كيف يكون التصرف السليم في موقف كهذا، خفت أن أنصرف، لم أجد بدًا من إعادة السؤال، بعد ألف عام سألني أحدهم:

- هل قبض على أحد من أقاربك؟

- نعم، أخي.

- يبدو أنكم لم تحسنوا تربيته.

كدت أبكي وأنا أتساءل:

- هل جيئ به إلى هنا؟

عاد الصمت القاتل يصرخ بعنف إلى أن أجاب أحدهم:

- الذين قبض عليهم في المظاهرة الأخيرة ليسوا هنا.

- أين هم إذن؟!

- لا نعرف.

- أرجوكم يا أفندم، أتوسل إليكم، فليدلني أحدكم.

بكيت بالفعل وأنا أقول بنبرة متقطعة:

- أرجوكم يا أفندم، من فضل معاليكم، أريد أي معلومة.

- لا نعرف.

- يمكنك أن ترسلي محاميًا.

خرجت محاولة أن أقاوم الإغماء، لست أدري كيف وصلت للبيت، العيون تسأل واصفرار لوني وانهياري البادي يجيبان.. دفنت وجهي في وسادتي وانهرت باكية بكاءً حادًا متواصلًا كطوفان، بكاء العمر كله تركز في هذه اللحظات، الهموم المتراكمة على مدى السنين تبدو كزلزال يجتاحني، وأمي وأختي أوشكتا على الانهيار الكامل، أخبرتهما وانفردت بنفسي.

ياربي!

إلى أي حد نحن قليلو الحيلة ضعفاء!!

النار لا تؤلم إلا من يحترق بها، المجاملات الكاذبة وحتى الصادقة لا تجدي شيئًا، اللهم لا اعتراض على ما تقضي ولكن لماذا خلقتنى! أستغفرك ربي، كان سيدنا عمر بن الخطاب يقول: "ليت أمك لم تلدك ياعمر" البهائم تسجد لله شكرًا أنها لم تكن من بنى آدم.

جاءت دينا تقول برفق:

-أمك تريدك.

قالت أمي وأثر البكاء على وجهها:

- ما رأيك يا باتعة لو تذهبين وأختك إلى عمك خالد، سيساعدكما بالتأكيد، هو رجل ويستطيع التصرف.

غمغمت دينا بمرارة ساخرة:

- يساعدنا!

- نحن في شدة ونحتاج إلى.........

قاطعتها متوسلة:

- يا أمي!

بادلتني التوسل هاتفة بعذاب:

- جربا، من أجل خاطري جربا، جربا من أجل أخيكما الوحيد.

تحاملت على نفسي، قمت فغسلت وجهي ونزلت مع أختي، اقتربنا من بيت الأستاذ خالد، خفق قلبي، تشجعت بأختي وحسمنا أمرنا، ضغطت دينا على الجرس، انفتحت شراعة في الباب وأطلت منها سيدة ترتدي نظارة طبية، ما أن رأتنا حتى انعقد حاجباها بتساؤل، قلت محاولة أن أبدو هادئة:

- هل عمي خالد موجود؟!

- لماذا؟! أقصد من أنتما؟!

استقبلنا العم خالد بعاصفة من الترحيب والتهليل، طلب من زوجته أن تصنع لنا شايًا فأجابت بصمت متكاسل فقلت:

- لا داعي، فسننصرف حالًا.

تساءل متوجسًا:

- خيرًا يا جماعة؟!

شرحت له الموضوع باختصار وانتظرت رده، تجهم وجهه صمتًا، طال صمته ثم قام فدخل غرفة أخرى وعاد فجلس ثم قال محرجًا:

- الحقيقة يا أستاذة باتعة، لست أدري ما أقول لكما.

سألت دينا بخيبة أمل:

- ألا يمكن أن تتصرف بأي شكل؟

- وماذا يمكن أن أفعل!! على كل حال لا داعي أبدًا للقلق، فما حدث مجرد إجراء أمني روتيني، وسيتم الإفراج عن الجميع بإذن الله، ودعونا لا ننس أن فيهم عضوًا بمجلس الشعب، فهذا سيحرك الأمر كثيرًا، بالإضافة إلى أن الحكومة لابد أن تقدر الظروف هذه الأيام.

قمنا لننصرف فقال بلهجة من توصل لحل لغز عسير:

- ما رأيكما لو تكلفا محاميًا بمتابعة الأمر!!

د - عــمــرو

كل الأمور تساوت، ما عاد شيء جميل وأخر قبيح، النصر بطعم الهزيمة، والحياة موت والموت حياة.. طعوم الحياة لا تختلف الحلو مجرد طعم والعلقم مجرد طعم، والحياة مجرد حياة.. قيم العروبة والأخوة والدم يكفر بها العرب الأخوة كفرًا لا يقل عن كفر كفار مكة برسالة السماء.

أخيرًا أطلقوا سراحنا.. كم يوم قضيناها هناك؟!

لا أعرف، ولا يهم أن أعرف، ربما ألف ألف عام، وربما قد ولدت هناك، أو لعلّ الزمن قد تصلب وتحجر بعد أن أجبروه على التوقف.

عدت للبيت ولا أدري كيف، كنت أسير في الشارع كأنني أسير في أنبوب طويل لا أخر له وكأنني سائل يسرى بقوة الدفع لا يملك من أمر نفسه شيئًا.. طرقت الباب، فتحت دينا فصرخت بفرحة وألقت بنفسها في حضني، رفقًا بي يا أختي العزيزة، كاد حضن أختي أن يسقطني، أسرعت إلى حضن أمي كأنه مرفأ أخير، أبذل جهدًا مضنيًا كي لا يرونني بقايا إنسان فتموت أمي.. كنا نسير في المظاهرة نهتف، لسنا أغبياء كي نفعل ما يضر ببلدنا، لست أدري من بدأ بالعدوان، الشرطة اعتدت على المتظاهرين الذين ردوا بمهاجمة بعض المحلات التي تبيع المنتجات والسلع الأمريكية والصهيونية أم العكس، لم

أشترك في الهجوم ولكن تم القبض عليّ وأقيم من أجلي حفل الاستقبال الشهير ثم أخذوني إلى المنظومة حتى أخرها.. لن أسير في مظاهرة بعد اليوم، جهد لا طائل من ورائه، أنا لا أصلح لشيء، فتحت أمي معي حوارًا قلقًا ، أسئلة مدببة، تهربت من كل الأسئلة الملهوفة بالصراخ العصبي، تركتها إلى الحمام كي أغتسل، رغم كثرة الاغتسال إلا أن أشياءً علقت بالروح لست أدري متى تزول.

احتفلت دينا برجوعي بطريقتها الخاصة، أسرعت إلى جهاز التسجيل ليقذف بالأغاني الصارخة الهابطة، جاء الجيران يهنئون ويحمدون الله سلامة عودتي، زاد ذبول أمي وشبح الموت يقترب.. باتعة صارت عجوزًا، يبدو أنهم قد عانوا طويلًا في الفترة القصيرة التي غبتها.

جاء علي "طمبة" يحاول إيهامي بأنه كان معهم لحظة بلحظة طوال فترة غيابي، وأنه قد بحث عني في الأقسام والمستشفيات ولدى المعارف، ودينا تلمح ساخرة ساخطة من كذبه المفضوح، كان الله في عونك يا باتعة، لست أدري كيف ستحتملين شخصًا كهذا!

أعتقد أنه سيغض النظر عن طلب يدك، لمّح لي بطلب يد دينا، لست أدري أفعل ذلك يأسًا من باتعة أم زهدًا فيها وطمعًا في "دينا" الجميلة.. على كل أهلًا بك يا باتعة العزيزة في قطار البؤساء.. لن أهتم بالسياسة مطلقًا.. لست أذكر من قال بأن السياسة أهم وأعمق وأخطر من أن تترك في يد السياسيين وحدهم، لكنني أذكر أنني طلقتها ثلاثًا.

كم أحسد هؤلاء الشهداء في العراق وفلسطين!

استراحوا من الدوران في رحى هذا الواقع.

حين أبلغونا بإطلاق سراحنا قال لنا أحد المسئولين - في محاولة فردية لغسل شيء ما -:

- كلنا ضد الحرب على العراق، وقد رأيتم بأنفسكم مظاهرات ومسيرات سلمية اشترك فيها مسئولون ووزراء وأساتذة فى الجامعات وفنانون – كما حدث – في معظم دول العالم، ولكننا ضد أى مظاهرة تخرج دون إذننا، وضد كل ما يشوه صورتنا أمام الآخرين.

اطمئن يا حضرة المسئول وطب نفسًا، فقد اقتنعنا بعبثية الحياة نفسها لا المظاهرات والسياسة فقط.

أضاف السيد المسئول بلهجة خاصة للغاية:

- وبالمناسبة، إذا كان هناك متحمسون وأصحاب دماء ساخنة وحمية وشهامة نادرة ويرغبون بالسفر للعراق لمقاومة الاحتلال فنحن لا نمنع أحدًا من السفر إلى أي مكان في العالم

هل المسئول جاد فيما يقول؟!

وهل يمكنك السفر إلى العراق يا عم عمرو؟!

ما أروع الشهادة فى سبيل الله!

وما أروع الحياة في سبيل الله أيضًا!

أرأيت!

القرار ليس سهلًا! وظروفك تختلف عن ظروف الآخرين.

ما أكثر الأمور التى أجهلها! وكم أنا صغير في هذي الدنيا!

هل يمكن للإنسان أن يولد من جديد، ليعيش الحياة من بدايتها كي يصحح ما وقع فيه!!

ارتميت في المقهى، التليفزيون يبث سمومًا ناقعة وظلمًا بلا حدود، هذا العالم يصير أكثر بشاعة كل يوم!

5 – باتعة

جمعتنا الفسحة المدرسية لشرب الشاي في غرفة المعلمين، دخل أحد الزملاء ممسكًا بجريدة.. طالت الحرب والعراق صامد كالجبل رغم انقطاع التيار الكهربي والماء والغذاء، أحوال المستشفيات في غاية السوء، الأطباء يجرون العمليات الجراحية الدقيقة للضحايا على أرصفة الطرقات بأدوات جراحية بدائية، أعداد القتلى

والمصابين تزداد بإطراد مخيف، ورغم كل شيء فإن العراقيين، يسقطون القتلى والجرحى من الجانب المعتدي.

دخل الأستاذ سرحان وبيده كرة قائلًا لبعض الزملاء الشباب:

- بسرعة يا سادة، نريد أن نلعب مباراة قبل نهاية الفسحة.

زفر زميل آخر مشيحًا بذراعه:

- يا أخي، الموت يحيط بالناس، والخراب يعم الجميع وأنت تريد اللعب!

- لأن الأمر محسوم منذ البداية يا صديقى، الأمريكان سيدكون العراق دكًا.

تدخل عم عبد الغني العامل وكان يصب له كوبة الشاي متسائلًا باهتمام:

- لماذا؟ ألا تقولون إن الحرب قد طالت؟!

أجاب سرحان متصنعًا العلم والثقافة:

- طالت أم قصرت يا عبد الغنى، أمريكا هى الأقوى الصواريخ الحرارية والذكية والقنابل العنقودية والقوة التدميرية الرهيبة، كل هذا كفيل بدك العراق.

طأطأ عم عبد الغني رأسه واضعًا كوبة الشاي على الأرض متمتمًا بقنوط أسيف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ولماذا يسكت الله على هذا الظلم؟!

رمقت سرحان بنظرة نارية، فتساؤل الرجل البسيط لا ينم إلا عن اليأس والإحباط.

تطوع زميل بأن قال:

- ربك له حكمة بالغة وقدرة مقتدرة يا عم عبد الغني.

رغم أنني عاهدت نفسي أكثر من مرة ألا أقحمها في جدل سياسي إلا أنني قلت محاولة ضبط انفعالي:

- والله العظيم، أمريكا هذه ليست قوية كما نتصور، ونحن لسنا ضعفاء كما نتصور، فأمريكا الرهيبة هذه ذاقت الأمرين في ميناء أم القصر بالعراق، ولم تستطع السيطرة عليه – رغم عتادها ورغم ضعف الجانب المدافع – إلا بعد أربعة عشر يومًا كاملة من الحرب المريرة ضد أهل البلد البسطاء، وقد تكبدت خسائر فادحة، حتى أن المظاهرات الغاضبة في أمريكا وبريطانيا لا تتوقف مطالبة بوقف هذه الحرب.

لم يعجب الأستاذ سرحان أن يهزمه أحد في نقاش فضلًا عن أن يكون هذا الأحد مجرد امرأة فانبرى يصيح بلهجة من يحارب لا من يناقش:

- العبرة بالنهاية يا أبلة، ولاحظي – إن كنت تلاحظين - أن كل قتيل أمريكي أو بريطاني يقابله عشرون على الأقل من العراقيين، هذا بخلاف التدمير الكامل الذي أصاب كل منشآت البنية التحتية.

قلت بهدوء بالغ:

- ولا حظ أنت أن تقدم المعتدين بطيء للغاية رغم قوتهم الخارقة.

شعرت أن سرحان يهم أن يضربني فقلت في محاولة لإنهاء المناقشة:

- وعلى كل حال لابد أن يبقى الأمل باقيًا.

هتف بسخرية طافحة:

- في انتصار العراق؟!

أجاب عم عبد الغني منفعلًا:

- بل في الله يا أخي.

أنقذتني عبارة عم عبد الغني فاستأذنت منصرفة بسرعة.

***

الأربعاء 9 أبريل 2003

المرارة تتمدد وتتعملق وتتعاظم حتى تكاد تبتلع الكون كله.. كتبت في كراسة خواطري " يظل الفارس فارسًا يقاتل مهما كانت المعركة غير متكافئة حتى تأتيه طعنة الغدر غائرة في ظهره على غير توقع.. الشعب

الصامد طعن غدرًا فانهارت قواه، آدم خان الأمانة فطرد من الجنة، وقابيل خان أخاه وقتله فأصبح من النادمين، الخيانات دائمًا تزلزل العروش وتنحر الشعوب، وتقلب كل الأمور رأسًا على عقب.. صمد الشعب المسكين بجراحه العميقة ودمائه النازفة حتى خانوه فانهزمت روحه فسقطت منه بغداده"

وضعت دينا الطعام فكان سمًا زعافًا، قالت أمي باكية:

- لا زالت لقمة الصباح راقدة على صدري.

لم ينطق عمرو بحرف ولم يكف عن الهرش فى جلده، قالت دينا متسائلة بخواء:

- مالك يا عمرو؟! هل أصابك الجرب؟!

قذفها بحذائه مغيظًا، قام يريد ضربها إلا أنها أسرعت هاربة صارخة إلى غرفتها مغلقة بابها برتاجها الداخلى وهو يطرق الباب بكلتي يديه بعنف يكاد يبكي من فرط غيظه وأنا أحاول تهدئته، وأمي تصرخ مستغيثة بالله من ابنها حتى خرج من البيت صافعًا الباب بقسوة بالغة.

في المدرسة تحاشيت رؤية الأستاذ سرحان، لكن يبدو أنه كان يبحث عني بإصرار شامت، ما أن رآني حتى أطلق ضحكة ظافرة شامتة ساخرة.. ليس أقبح من الشياطين الخبثاء إلا الشياطين الأغبياء.

تنهد أحد الزملاء بمرارة:

- كنا نتوقع الهزيمة، وإن كان راودنا أمل جميل مع طول صمود أبطال العراق، أما الخيانة فتلك ما لم تكن فى الحسبان.

- أمريكا الأقوى.

- لكن المقاومة كانت مذهلة.

- أين تحصينات بغداد؟ وأين الجيش؟ وأين.. وأين؟!

- هنيئًا لهم ببترول العراق.

- بالعكس، هذا الانتصار وبال على أمريكا، فقد خسرت كثيرًا وستخسر أكثر.

- من يصمد هكذا في حرب مباشرة فستكون مقاومته مرعبة للمحتل.

قال سرحان شامتًا:

- افتحوا التليفزيون، تطالعكم أخبار السلب والنهب لكل شيء، حتى المتحف الذي يحوى تاريخ العراق وآثار حضارته نهبه العراقيون.

كظمت غيظي بشدة:

- المعتدون أذكياء، أطلقوا سراح المسجونين المجرمين والخارجين على القانون كى يعيثوا في الأرض فسادًا، فيبررون وجود المعتدين على أرض الرافدين ويقولون للعالم: إن هؤلاء لا يناسبهم إلا القمع والرعب.

الحصة التي تلي الفسحة مباشرة كانت راحة بالنسبة لي، جاء بعض التلاميذ يطلبون مساعدتهم في إعداد إذاعة الصباح غدًا، كتبت مقالة مقاومة، دفعتها لإحدى التلميذات.

في طابور الصباح – في اليوم التالى – كان الأستاذ سرحان يقف بجثته الضخمة وعصاه الطويلة في مواجهة الطفلة الصغيرة، إلا أنها كانت تقرأ المقالة بلا تلعثم.

هـ - عــمــرو

تساورني أفكار مجنونة، أشعر أحيانًا أنني مجرد كيان هش، ريشة في مهب الحياة، وأحيانًا أخرى أشعر أنني لو سافرت للعراق فستتغير الأحداث إلى الأفضل.. عدت أحافظ على صلاتي، كان والدي يلومني بشدة إذا قصرت في الصلاة، أطلقت لحيتى ثم عدت فحلقتها، لم أعد أعرف ما أريد وما لا أريد، ولا من أنا أصلًا.

لو رأيت من عذبوني فى قسم الشرطة فقد أتحول إلى قاتل فورًا، وربما لا شيء على الإطلاق.. شياطين الجحيم، وعتاة الصهاينة، ومجرمو الحروب، وكفار قريش، ورءوس الغيلان يسكنون في أقسام الشرطة ومباحث أمن الدولة.. أحدهم كان يصرخ فينا: أنا أبولهب.

ربما يأتي يوم ألتقي فيه بهدى.

يا إله السماوات!

هدى!!

أتراها ما زالت تذكرني؟!

ياربي! ماذا لو عرفت هدى أنهم هناك قد.......

ماذا لو عرف علي "طمبة" ؟! أو أختي باتعة؟! أو دينا؟! أو أهل شارعنا؟!

لو عرفت أمي ستموت على الفور.. أستشعر تلوثًا في نفسي وجسدي، أهرش في جسمي أكاد أدميه، أسرع إلى الحمام، أقف – ربما ساعة كاملة – تحت الماء، هذه أمور لا ينظفها الماء، ربما لو سافرت إلى العراق أو فلسطين كي أقاتل الشياطين.

فكرة السفر تجتاحني بشدة – هذه الأيام – هذي حياة ليست كالحياة، سيكون لحياتي معناها الحقيقي عندما أقاوم المحتلين في بلاد الرافدين.

نشرات الأخبار ترمى بالقيح والصديد، ولكن نقطة النور الوحيدة تنبعث من بسالة المقاومة العراقية.

المحتلون لا يقف فجرهم وجبروتهم عند حد، كان المحللون والفلاسفة وعتاة الشاشات يعتقدون أن الأمريكان سيختارون عراقيًا عميلًا لحكم العراق، يأتون به على دباباتهم فإذا بهم يواصلون التحدي، فيأتون بـ "جى جارنر" حاكمًا على العراق.. اسم أجنبي بملامح أجنبية، بسياسة أجنبية، بسطوة المحتل، لغة القتل والدم والخراب هي الأعلى صوتًا في حوار المحتل مع الأهالي، مع الاحتلال يتوه العقل ويضيع المنطق، والمقاومة ترد بسيارات مفخخة تنفجر مخلفة جثثًا من جنود الاحتلال، تعود لبلادها في صناديق فيقيمون لها التأبينات المهيبة والجنازات الرهيبة، وبعدها تندلع المظاهرات العاتية غضبًا لها.

يحكون – على المقهى – عن العراق العامرة وبغداد الزاهرة وكيف كانت سببًا في فتح بيوت كثير من المصريين.

لو سافرت للعراق فشاركت في أعمال المقاومة فسأموت شهيدًا، وإذا عدت فسأعود مغسولًا وقد تخلصت من كل تجربة مؤلمة مررت بها.

عدت فأطلقت لحيتي، ذهبت إلى أستوديو قريب طالبًا صورة 6×9، قال لي المصور بلهجة بين الجد والهزل:

- ماذا يا شيخ عمرو، هل ستتصور بهذه اللحية؟!

قلت بشيء من الحرج:

- سأستخرج جواز سفر.

قال بلهجة جادة:

- أنصحك إذن بحلقها.

أضاف وقد عادت لهجته لما بين الجد والهزل:

- أحبابنا في أمن الدولة لا يكرهون شيئًا كراهيتهم للحى.

تكهربت أعماقي والذكرى الرهيبة تدور في ذهني كإعصار، وكدت أن أتقيأ غير أني تماسكت بصعوبة، واستطعت أن أرسم ابتسامة مغتصبة من شفتي وهمهمت:

- معك حق.

استأذنت منصرفًا بسرعة دون أن أدري إن كان الرجل قد لاحظ ما اعتراني أم لا.. حلقت لحيتي، ومضيت في إجراءات استخراج جواز السفر.

علي "طمبة" صار يتهرب مني بعد أن كان يطاردني، صار بخيلًا يبدو أنه قد يئس (أو أشرف على اليأس) من موضوع باتعة، وكذلك دينا، لو ترك والدي لنا ما نستند عليه ما جرؤ مثل علي "طمبة" أن يطلب مثل باتعة أو دينا لزواج هو أول من يدري بعدم تكافئه، لعلّ الفتى قد رأى فينا حملًا ثقيلًا، ولسنا مغنمًا كما كان يتصور.

أمي تزداد مرضًا، وباتعة لا تكف عن الطواف بها على المستشفيات الحكومية، أحيانًا أذهب معهما، ثم رأت أمي ألا أذهب، يبدو أن ذهابي معهما عبء ثقيل وليس مساعدة لهما، دائمًا ما تقول لى أمي وهي تكاد تبكي:

- يا ولدي، نحن فقراء، والمستشفيات الحكومية تحتاج إلى صبر طويل، وأسلوبك هذا يجعلهم يعاندوننا.

وأرد معترضًا بدهشة مغتاظة:

- يا أمي، لست أطلب إلا حقنا، هم من يستحقون اللوم لا أنا وألتفت إلى باتعة قائلًا بضيق:

- وهذه ابنتك العاقلة تخبرك بهذا، أم تراني أخرقًا يا حضرة الأستاذة.

تجاوبني باتعة بتنهيدة صامتة مؤيدة، ربما هي من المرات القليلة للغاية التي توافقني فيها باتعة، أعرف – والله – أنها العاقلة المثقفة، وأعرف أيضًا أنه لو ماتت أمى فسأكون ودينا عبئًا عليها.. هذه أسرة تحتاج لرجل حقيقي، وباتعة هي هذا الرجل المطلوب.

6 - باتـعـة

منذ أن ماتت أمي وأنا في حالة عجيبة من انعدام الوزن، كأنني رائد فضاء انفصل عن سفينته، يحلق تائهًا بين ظلمات الكواكب والسدم تطارده الثقوب السوداء.. أن تكون في أمان غرفة دافئة ثم تنتزع لتواجه – عاريًا – الريح العاوية والبرودة العاتية في أمطار ليلة مظلمة.

امتلأت كراسة خواطري، ما عادت تحمل المزيد، لم أشأ أن أملأ كراسة جديدة بأوجاعي، قررت قطع رسالة الماجستير، لكني لم أتخذ خطوة رسمية بعد، فماذا يجدي العلم في زمن اللامنطق، يقولون إن الحزن الكبير قد يصنع إبداعًا عظيمًا فمالي أرى حزني جاثمًا لا يكاد يسمح لي بالتنفس!

رغم كل شيء يمضي قطار الحياة، يقف لدقائق عند بعض المحطات ثم يكمل الرحلة المقدورة، تقدم إلينا عريس يطلب يد دينا، ريحانة الأسرة ببشرتها البيضاء وقامتها الطويلة وملامحها الرقيقة، الوحيدة التي تستطيع أن تشيع جوًا من المرح يخفف من وطأة ما نعانيه، لكني لازلت أخشى عليها من سطحيتها ونظرتها اللامبالية بأي شيء.

عمرو أصبح عالمًا خاصًا لم نعد نعرف عنه شيئًا، لكنه أبدى رأيًا في أمر عريس دينا، رآه مناسبًا سيصونها ويخفف عنا حملنا، ملت بدوري لرأيه، أخيرًا دخل بيتنا عريس مناسب، أحاول القيام بدور الأم

لأختي لكنها عنيدة، نافرة، رفضت العريس بشبه هستيريا أفزعتني وقذفت في روعي أفكارًا سوداء تبدأ من فكرة أن تكون قد تزوجت عرفيًا أو على وشك أن تفعل، أو تفكر في بيع نفسها لشيخ خليجي بواسطة سمسار نخاسة أو...أو.... لا حول ولا قوة إلا بك ياربي!

وقد تكون مجرد قصة حب عادية، سأفعل المستحيل لسبر أغوار هذه الفتاة، اقتربت منها، وتذرعت بالصبر، ابتسمت محاولة مناقشتها إن كان في حياتها شخص ما.

نظرت إليّ ممتعضة وهي تقول:

- شخص ما!!

عدت أبتسم متصنعة المرح:

- يا دينا يا حبيبتي، أنت جميلة، ورقيقة، وخفيفة الظل، وبالتأكيد أنت مطلوبة ومرغوبة، ولاعيب أبدًا إن أعجبت بشاب أو أعجب بك، ولكن عليه أن يأتي البيوت من أبوابها، وإذا جاء فلن نرفضه لأننا نريد لك الـ...

قاطعتني محاولة أن تبدو هادئة:

- اطمئني يا أختي العزيزة، ليس في حياتي شاب آخر، فهل استرحت أم أحلف لك على مكتبة من المصاحف؟!

فوجئت بعمرو يدخل صارخًا:

- لماذا رفضت الرجل إذن يا بنت الـ....

صرخت دينا مستغيثة فقمت فدفعتها إلى غرفتها وأغلقت الباب وأنا أهتف بحنق:

- ليس هكذا يا عمرو، دع لي أختك ولا شأن لك بها.

صاح يكاد يبكي بالفعل:

- لسنا في حال تسمح لنا بالتدلل أو العبط.

ربتُّ على كتفه مشفقة محاولة هدهدته كطفل متنمر حتى هدأ فجلس فقلت له باسمة:

- دعك من هذه المجنونة، فسأقنعها، ولكن قل لي، ماذا تنوي أنت أن تفعل؟!

تنهد مطأطأ رأسه:

- لما كانت أمي بيننا كنت أفكر جديًا في السفر، فلا عيش لي في هذا البلد، أما وقد ماتت فلا أدري ماذا أفعل ولا أعرف ماذا أريد.

- ولماذا أصدرت حكمًا مطلقًا بألا عيش لك فى بلدك؟

- لأنه لا عيش لي في بلدي بالفعل.

- لو فكر كل شاب كما تفكر الآن فلن.....

قاطعني بإشارة من كلتا يديه هاتفًا:

- أستاذة باتعة، ارحميني من هذا الكلام الكبير الذي تقرأينه في الكتب.

انصرف ساخطًا وهو يغمغم بكلمات فهمت منها أن أمه قد ماتت تاركة له مصيبتين لا يعرف كيف يتصرف معهما.

محاولاتي المتعددة للتقرب من أخوايّ تبوء بالفشل، هذه أسرة توشك على التمزق، كلّ منا يرى في الآخرين قيدًا في معصميه، لو تزوجت دينا فقد أفكر في قبول علي "طمبة" كى يتحرر عمرو تمامًا ويشق طريقه دون أن ينوء بثقلنا، الحاجة أم التنازل، رحم الله أمي، وحدها من كانت تلم عقدنا، أين تراك الآن يا حسان؟!

حين انتقل من مدرستنا وأنهى بيده قصتنا القصيرة لم أجرؤ أن أسأل عنه، وحين يطوف بفكري أحاول التخلص منه، فليس من حقي التفكير في شخص أعرف أنه ليس لي، لكنه لو كان معي الآن لاختلف المسار كثيرًا عما أنا فيه.. لا مقارنة بين حسان وعلي "طمبة" لكن حسان مجرد شهاب برق في سمائي ثم انتهى، أما علي فيحمل سطوة ووطئة الواقع الذي أحياه يومًا يومًا.

هل أبلغ عمرًا بموافقتي على الارتباط بعلي طمبة؟!

رباه! "طمبة" هذا يقترن في ذهني بالنفور والصدود والتقزز، سامحك الله يا حسان، لو لم تظهر في حياتي فلربما نظرت لعلي نظرة أخرى.

ولماذا أظلم حسانًا؟!

لقد حاولت أن أتقبل "طمبة" إرضاءً لأمي، لكنني كلما فعلت تبخر الارتياح وتغبر الجو بالرفض.

لقد خلق الله الإنسان حرًا مخيرًا، مسئولًا عن أفعاله وأقواله، ولكن هناك أمور لا خيار لي فيها كلون بشرتي ورحيل أبي وأمي وهجر حسان وتسلط عمرو ولا مبالاة دينا، فهل ينضم "طمبة" لهذه القائمة المقدسة؟!

بعض علماء الفقه - الذين قيل عنهم متشددون – اشترطوا التكافؤ لكي يصح الزواج.

ياله من شرط!

أتراك يا باتعة سترضخين لوطئة الظروف أم تواصلين الصمود وتتمسكين بحق الاختيار!!

و- عــمــرو

تسلمت جواز السفر، رحت أقلبه بين يدي، لو تزوجت أختاي فهذا الجواز رمز الخلاص وإلا.....

ماذا يا عمرو؟! ألن تسافر إلى العراق لتقاوم طغيان وبغي مدعي الحضارة والرقي أم تراك جبنت وأتاك ترددك العاصف؟!

لست أخشى الموت في بلاد العراق، فالموت شهادة، ولكنني أخشى أن أقع أسيرًا في يد الأمريكان فيسلمونني إلى أجهزة الأمن في بلادي الحبيبة.

لماذا استخرجت هذا الجواز إذن؟!

لعلي أود السفر إلى إحدى بلاد الخليج، وهناك قد أجد عملًا أكسب منه دولارات وريالات كثيرة أحوالها إلى أحد البنوك المصرية أو أبيعها في السوق السوداء (فهي الأكثر ربحًا) وأوسع على باتعة ودينا ثم أتزوج، وقد أختلف مع كفيلي فيأكل عليّ أجري، فأضربه فيسجنني أو يتم ترحيلي إلى حيث أجهزة الأمن في بلادي الحبيبة.

وهناك فرصة رائعة إذا سافرت إلى أوربا، وبخاصة إيطاليا حيث الثراء السريع، الأجر يحسب عن كل ساعة عمل، ساعة العمل تساوي عشرة يورو.. أسمع عن شباب سافروا لمدة عامين فقط، فإذا بكل منهم يعود فيمتلك عمارة من عدة طوابق، ويتزوج ويقيم عرسًا ماله

مثيل، والبعض امتلك فيلا بحمام سباحة واسع.. إذا قررت الهجرة إلى إيطاليا فستكون – بالطبع – غير شرعية، حيث أسافر إلى ليبيا، ومن ليبيا أركب مركبًا صغيرًا به مائة شخص غيري، حيث يغرق بنا المركب قرب سواحل إيطاليا فيتم القبض علينا وتسلمينا إلى أجهزة الأمن في بلادي الحبيبة، أو نغرق كلنا ونصير طعامًا للسمك، ويختلف حولنا الفقهاء وعلماء الدين وأساتذة الاجتماع وأباطرة الشاشات إن كنا ضحايا شهداء أم مارقين مذنبين.

مهلًا! لماذا أريد السفر؟!

أليس من أجل أن أتزوج وأكون صاحب أسرة سعيدة؟!

وهل أنا أصلح لأكون رب أسرة؟!

كنت أريد الزواج لأنني أحب هدى، أما وأني قد عرفت أن الحب للمرفهين والقادرين عليه فقط فلا رغبة لى في زواج، سأظل عازفًا عن الزواج كأختي باتعة، الأستاذة باتعة على حق، أمارس البحث عن عمل ثم أعود للمقهى، موت أمي ألغى فكرة السفر، فزواج البنات مسألة قسمة وقدر، انقطع معاش الوالد بوفاة الأم، نحيا ثلاثتنا براتب باتعة.. أليست هي رجل البيت!!

هل لو تزوجت سيسمح لها زوجها بالإنفاق علينا؟!

إلى متى سأظل هكذا؟!

أعتقد أنني مشروع لمنتحر ناجح.. لو لم يكن الانتحار كفرًا وخلودًا في النار لفعلتها منذ زمن، خسرت الدنيا فلماذا أخسر الأخرة أيضًا!!

العمل حق دستوري لكل مواطن.. لا.. لا.. يا عم عمرو، قلنا: لا سياسة ولا مظاهرات ولا.. ولا.. فقط لقمة العيش

حسنًا يا سيد عمرو، أين هي لقمة العيش؟!

ابحث يا عمرو، ولا تكن كسولًا، ولا تنتظر من الحكومة أن تجد لك عملًا، يكفي الحكومة جميلًا ومكرمة أن تكف أذاها عنك.

لكنك يجب أن تفعل شيئًا.

أبحث عن عمل وأبحث، أجد أعمالًا لا تدوم ثم يستقر بي المصير دائمًا على المقهى.

القناة الإخبارية الشهيرة تعلن أنها ستعرض مشاهدًا وأخبارًا مروعة، لا يصح أن يراها الأطفال أو مرضى القلب، قال أحدهم بسخرية متوترة:

- هل سيغيرون النشاط من الأخبار إلى أفلام الرعب؟!

تسمر الجميع أمام الشاشة، يا إله السماوات!

أبشع الكوابيس تتضافر معًا لتصبح كابوسًا عملاقًا يلتهم إنسانية الإنسان بلذة التوحش الخرافية، أراني مسجونًا في سجن أسود تحت الأرض، زنازين مرعبة وغرف ضيقة تناثرت الدماء على حوائطها صانعة رسومًا سريالية للرعب المتعاظم، وبركة ماء آسن تقترب منها عربات محملة بأعداد هائلة من الجثث المتنوعة بين نساء وأطفال ورجال وشيوخ، وعلى كل الجثث تظهر بوضوح فاضح علامات تعذيب مفزعة، والعربات تلقي بحمولتها في البركة ثم تذهب لتعود بحمولات أخرى، وأراني مصلوبًا عاريًا، وهذا الشيطان الرجيم يمسك بسلسلة في نهايتها كلب مفترس، يطلقه بوحشية لينهش أعضائي عضوًا عضوًا وجسدي يرتعش بعنف وقد تغطى بالدماء، والغريب أنني لا أجد صوتي كي أصرخ أو أستغيث، وأراني صرت امرأة عارية تسير رافعة ذراعيها بين طابورين من البشر وقد تلطخ جسدها بمادة كاوية أسالت الدماء

عاوية، هذه المرأة ليست أنا، بل أختي باتعة، بل دينا، أختاي تشهداني مربوطًا من عنقي بسلسلة في يد شيطان آخر وقد أخفوا رأسي بما يشبه طاقية عملاقة، وأنا أمشي على يديّ وركبتيّ وقدميّ والشيطان يجبرني على تقليد أصوات كلاب وقردة وحيوانات أخرى، ويمرون بي على أبواب أسمع من خلفها – بوضوح – صرخات عالية، ممزقة، مستغيثة، وتنفتح أبواب أخرى عن قاعات فسيحة فإذا بآلاف البشر كلهم عراة، عراة بشكل مزر، دام، قاس، وقد تعلق بعضهم كذبائح مسلوخة على قيد الحياة، وصلب بعضهم على قوائم معدنية شديدة الكآبة، وأمام كل ضحية جلادوها الذين يتفننون في استخدام كل أدوات وآليات التعذيب في هذا الجحيم المستعر.

أخيرًا.. أخيرًا انفك صوتي، فرحت أصرخ وأصرخ بفزع، وأنتفض وصراخي يتعالى مرعوبًا، سقطت على أرض المقهى أتلوى كأنني سحلية نالتها ضربة توشك أن تقتلها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- أغلقوا هذا التليفزيون الملعون أو حولوه عن هذه القناة.

- القنوات والصحف العالمية تنقل الكابوس إلى ضمير العالم.

- سجن أبو غريب.

- جريمة لا تسقط بالتقادم.

- عولمة التعذيب.

- الرئيس الأمريكي يرفض بغطرسة دعوة الأمم المتحدة لغلق معتقل جوانتنامو.

- أحدث منجزات الحضارة.

- تحقيقات هزيلة.

- الزبانية يتنطعون بأنهم ينقذون أوامر قادتهم.

- مليارات الدولارات لاستيراد آلات التعذيب والإيذاء.

- فضيحة مدوية.

- مستشفى ومعاطف بيضاء.

- قطط تموء بعنف.

- أصوات سيارات وكلاكسات مخيفة.

- انهيار عصبي.

- سباحة سرمدية في أنبوب مظلم طويل.

- رؤى تتضح بتتابع بطيء.

أخيرًا أرقد على سرير، أفتح عينيّ، أحدق في السقف، يطل عليّ وجها باتعة ودينا بحنان أمومي.

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل، شغلت قلوبنا عليك.

7 – باتـــعـــة

ليس أقوى من الموت إلا الحياة نفسها.

الحياة رحلة لا تنتهي نحو الأبدية، أما الموت – على سطوته – فمجرد محطة، نستكمل بعدها الرحلة نحو البقاء الخالد، لقد خلقنا الله للخلد!

الحياة تمضي بنا بإيقاع لاهث، وتتابع متلاحق، فما أسرع مرور الأيام والسنون!!

مياه كثيرة سارت في النهر، السنوات التي مضت غيرتنا أم نحن تغيرنا من داخلنا!

أقف الآن وسط بحر متلاطم متعاظم من البشر في لحظة فوق سيطرة الزمن، طوفان البشر يهدر راعدًا، منذرًا، صانعًا للمصائر: "الشعب يريد إسقاط النظام"

هذه الوجوه المشعة بألق نوراني، أستشعرها ملائكية قدسية قادرة قاهرة على التغيير لأنها قد تغيرت، نسائم الحرية الوليدة شحنت الناس بطاقة روحية هائلة، أنشأتهم خلقًا آخر، هؤلاء بشر لكنهم ليسوا كالبشر، أعرفهم ولا أعرفهم، أليس هذا الفتى الذي يتدفق حيوية ونشاطًا، يتحرك هنا وهناك، يفتش الداخلين، ويساعد كبار السن، ويرشد التائهين، ويتبادل الإشارات المتفق عليها مع زملائه،

ويبدي ملاحظاته على بعض اللوحات المعلقة، ويضحك بملء شدقيه – كأنه لم يضحك من قبل – لنكتة جديدة ضمن إعصار النكات التي انفجرت في الميدان، ولديه فائض كبير من الحيوية لم يستهلكه بعد، أليس هذا الفتى عمرًا؟!

عمرو أخي؟!

وهذه الفتاة المنغمسة بحماس عارم في حلقة نقاشية حول ما ينبغي عمله في الأيام التالية، أليست دينا أختي؟!

التقيت بصنوف من البشر، صافحت عيناي آلاف الوجوه، بعضهم ينظم ويرتب ويهتف وينظر، وبعضهم يقوم بجمع القمامة من أرض الميدان الذي تحول لمدينة فاضلة بالفعل على أرض الحياة بعد أن ظلت لآلاف السنين مجرد حلم يراود الفلاسفة والشعراء والحالمين.

كنت أوزع أكواب الشاي على بعض من حولي حين جاءتني دينا ضاحكة، تمسك بيدي ملفتة نظري إلى إحدى الشاشات الموجودة في الميدان، شخص امتلأ جسده وأكل الصلع رأسه يصرخ مهددًا من بالميدان ويصفهم بالخونة والعملاء، وأنهم يأكلون "الكنتاكي" كل يوم وأنهم.. وأنهم......

ضحكت بدوري ودينا تقول باسمة:

أليس هذا هو السيد علي "طمبة"؟!

عدت أضحك، اختفى من الشاشة، وعدت أوزع الشاى، انتهى الشاى فانشغلت بطفل صغير محمول على عنق أبيه، يمسك علمًا يلوح به ويهتف بحماس طفولى آخاذ، ومن خلفه يردد جمع كبير من الناس.. العقل والقلب يتشاكسان، حدثت هنا معجزات ما كان أحد يتصور حدوثها، والتقت وجوه كان لقاؤهم من نسج حكايا الرومانسية، فهل يمكن أن نلتقى بحسان؟!!

أضحوكة العطش

1 - أنا وذهني

- آوه ! إنت ! هيا استعد لبدء رحلتنا.

- أي رحلة يا هذا! لست مستعدًا – على الإطلاق – لأي رحلات، أنا أحتاج للراحة التامة.

- الراحة التامة! هذا تعبير يقوله الأطباء للمرضى المرهقين، وأنت مرضك في كسلك؛ فهيا تخلص من هذا الكسل الملعون، لنبدأ الرحلة.

- إلى أين ؟!

- إلى بلد آخر، في كوكب آخر، في زمن آخر.

- آه !! رحلة بين الكواكب والنجوم والأزمان، وسفن فضائية وآلات زمن إلخ.. إلخ.. يا صديقي إنها رحلة تقليدية قام بها قبلك آلاف من كاتبي روايات الخيال العلمي ومخرجو أفلامه.. دعك منها.. دعك منها.. هيا استرح واسترخ واستجم واهدأ فهذه رحلة لن تضيف جديدًا.

- صدقني إنها رحلة غير تقليدية، إنها رحلة إلى كوكب حافل بالجربانين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وما حاجتنا بالجرب والجربانين! إذا كنت في شوق جارف لأن تكون أجربًا فليس أسهل من ذلك، كل ما عليك أن تكف عن الاستحمام و...

- إنها رحلة تستحق التأمل.

- يا سيدي، تأمل وحدك، أنا لا أريد أن أصاب بالجرب، فاذهب وحدك لهذه الرحلة، وسأنتظرك بشوق حتى تعود، هذا إن عدت بلا جرب.

- أنت ذهني، ولابد أن تطاوعني في كل رحلاتي وأفكاري.

- نعم أنا ذهنك الذي تجهده وترهقه وتقطع أنفاسه كي يقول القراء عنك إنك كاتب تحرير ومتمكن، وقد ترزق بناقد يكتب عنك، وتنال المجد والشهرة والجوائز دون أن أنال سوى النصب والمشقة بلا حدود . لك الحلوى ولي النار، هذه قسمة ضيزى.

- هاها.. هاها.. أضحكتني والله، هون عليك يا ذهني العزيز، فأنت تعلم أن عامة أهل القلم يتشكون من قلة عدد القراء وصعوبة النشر وقلة مواكبة النقد للأدب، أما الكلمات الكبيرة التي تناوشني بها من نوع المجد والمال والشهرة، فهذه الأشياء متوفرة بالفعل في بلادنا الغالية والحمد لله، ولكن ليست للأدباء والمثقفين، وأنت تعلم أيضًا أن الأديب الحقيقي لا يكتب من أجل هذه الأعراض الزائلة التي تذهب جفاءً.

- لماذا نكتب إذن ؟!

- سؤال سهل ممتنع، تتعدد إجاباته بتعدد المجيبين عنه، وتتراوح من البساطة وأحيانًا السطحية إلى العمق وأحيانًا الغموض والتقعر، وذلك لأنه لا أحد يعرف – يقينًا – ممن ينتمون إلى قبيلة الكتابة لماذا يكتب، أتعرف يا ذهني العزيز؟!!

- لا أريد أن أعرف.

- حينما تقدم الفنان الراحل أحمد زكي لاختبارات التمثيل – في بداية حياته – سأله الممتحنون ! لماذا تريد أن تكون ممثلاً ؟! فرفع يديه بحيرة حقيقية مجيبًا "مش عارف والله".

وخرج من الامتحان يعتقد أنه سيرسب بسبب إجابته، دون أن يدرك أن هذه الإجابة هي التي أهلته للحصول على الدرجة النهائية.

- حسناً، ما رأيك لو تمتشق حسامك (كما يقولون في القصص التاريخية) أقصد تمسك بقلمك المسكين البائس لتكتب مقالاً – سأمليه عليك – عن جدوى الكتابة، وهل الفن للفن أم الفن للواقع ومثل تلك القضايا، ودعك من حكاية كوكب الجربانين هذه و......

- اسمع يا ذهني الحبيب، لقد قررت القيام بهذه الرحلة، ولا مجال لك للهرب فهيا استعد.

- ماذا ! هل ستكرهني على هذه الرحلة ؟!

- مطلقًا يا ذهني العزيز، ومنذ متى وأنا أجبرك على الكتابة!! فقط أحاول استنفارك، أهيأك للرحلة، أخلصك من كسلك، لكن لو لم تكن تريد حقيقة فسأتركك حتى تستعد.

- أعرف جيدًا أن الله قد ابتلاني بك شر بلوى.

- ها أنت وافقت فهيا بنا.

- أمري لله، أين آلة الزمن؟! أهي تلك التي هناك ؟!

- بل هذه الغسالة، والرحلة لا تحتاج إلى آلة زمن ولا سفن فضائية، وليست مكلفة، فأنت من سينقلني إلى هذا الكوكب البعيد في الزمن الآخر.

- أسأل الله أن يريحني منك بأن تموت أو تصاب بالـ ألزهايمر.

- سامحك الله، والآن هيا بلا كسل.

- لي شرط.

- ....

- عندما نصل إلى هناك، سأتجسد لأكون شخصًا آخر، يتكامل معك لنصير كتوأمين صديقين، وليس مجرد تابع لك.

- لك هذا، والآن هيا بلا كسل.

2 - هرش ومعارك وعطش

لن تشكو من وعثاء السفر ومخاطر الانتقال بين الزمن والفضاء لأننا – ببساطة – قد وصلنا، وها نحن الآن في البلد المطلوب من الكوكب المطلوب في الزمن المطلوب.

- ما هذا الذي هناك ؟!

- دعنا نقترب، نقترب أكثر.

شارع كبير، الناس يروحون ويجيئون وقد انتابتهم حالة غريبة من الهرش المحموم، البعض يهرش بكلتا يديه، الهرش يتخذ إيقاعات غريبة وعجيبة ومتنوعة، يكاد يكون لغة في حد ذاته، طريقة الهرش لها دلالات معينة يفهمها الناس هنا.. هذا ما يبدو للوهلة الأولى، ولكن ما هذا الذي هناك ؟!

- أليس هذا مخبزًا أو جمعية تعاونية أو ما أشبه ؟!

- وما أدراك يا ناصح ؟!

- هذا الازدحام والمعارك الطاحنة بين المتزاحمين، إنهم يشتبكون مع بعضهم، يتعالى الصياح بشكل هستيري، والهرش يتزايد بعنف، أصوات الهرش تكاد تنافس الصخب.

الاشتباكات صارت عنيفة للغاية، يتبادلون الضربات واللكمات، يمزقون ثياب بعضهم، العصي والأسلحة البيضاء لها دور فعال، رغم الانشغال الكامل بالمعارك وتصاعد الأدرينالين في العروق إلا أن أحدًا لا ينسى الهرش، يبدو أن الهرش هنا واجب مقدس.

الأصوات والهرش والدماء والحر الشديد والازدحام الرهيب تشكل مزيجًا عجيبًا، هذه فرصة ذهبية وفضية وبرونزية لكافة الأمراض المعدية لعقد مسابقات وأولمبياد الانتشار بين هؤلاء الناس.

- ألا تلاحظ شيئاً ؟!

- هناك الكثير مما يمكن ملاحظته هنا، فماذا تقصد بالضبط ؟!

- رغم كل ما هم فيه إلا أنني لا أرى حبة عرق واحدة على جسد أي منهم.

- ربما لا يعرقون لا تنس أنهم كائنات فضائية مختلفة عنا.

- العراك تحول إلى كتلة من اللحم البشرى المتلاحم بقوة العنف الحاقد والكراهية الشنيعة.. أحدهم خرج من كتلة اللحم وعلى وجهه فرحة النصر المبين، يحتضن شيئاً بقوة وعنف وحرص، يحاول الهرش، يتقافز كالكرة وهو يزداد تشبثًا بهذا الشيء الذي يحتضنه.

- ماذا يحتضن ؟!

- هيا نقترب أكثر.

إنه يحتضن ما يشبه زجاجة مياه، بل زجاجتين، يطير بهما قاصدًا بيته... شخص آخر انفصل عن كتلة اللحم المتصارعة، وقت يمر والمعارك تزداد ضراوتها، وبعض الفائزين ينفصلون عن المعركة، وقت آخر يمر ثم يغلق باب المكان الذي يحصلون منه على زجاجات المياه.

تزداد حالة الهياج بين المتزاحمين، وتشتد ثورتهم، والهرش يتضافر مع الشتائم والسباب والصراخ لصنع حالة عجيبة من العواء المهيب، والغضب بدا قوة عاتية لا يدري أصحابها إلى أين يوجهونها.

أحد الفائزين يجري بأقصى سرعته، العيون الزائغة اصطادته.

- أعطنا ما معك من زجاجات.

أبشع أمارات الرعب ترتسم على وجه الفائز، يحتضن ما معه بغريزة البقاء، تبدأ المطاردة ومعها تفرز الأجسام أطنانًا من الإدرينالين، وقد تحول الفائز بزجاجتين إلى آلة للجري المرعوب، يعوي مستغيثًا بلا أحد.

- أعطنا ما معك وإلا جعلنا لك قيمة وثمنًا.

يجري مرتعشًا صارخًا:

- لا .. لا.

والغضب يتعالى ملتهبًا فيمد المطاردين بقوة وسرعة عنيفتين، وتقترب المسافة بين الفريسة والصائدين وتقترب وتقترب و...

وظفروا به.

- هل أكلوه أم اكتفوا بتمزيقه أشلاءً ؟!

- هل يأكل هؤلاء لحوم بعضهم ؟!

سرعان ما تحولت المطاردة لمعركة أخرى، زجاجات المياه تنتقل من يد لأخرى، لا تكاد تستقر لحظة واحدة في يد واحدة.

- لم تجب عن سؤالي، هل تعتقد أنهم يأكلون لحم البشر ؟!

- لا.. لست أعتقد هذا ؛ فكل اهتمامهم وعيونهم الزائغة وأظافرهم المخيفة تتصارع على الزجاجات.

- الضحايا يسقطون بكثافة عالية، هناك من فارق الحياة بالفعل، وآخرون لازالوا يصارعون الموت.

- انظر، عربات الشرطة أو الإسعاف قد وصلت، المعركة لازالت محتدمة وسيارات الشرطة تقف بالقرب منها، نزل بعض رجال الشرطة يراقبون المعركة بحياد كامل وبعضهم ينظر بضجر في انتظار نهاية هذه المعركة المملة، رجال الإسعاف يحملون الجثث والمصابين، يوزعون جهدهم بين العمل والهرش، يرمون الضحايا في العربات حتى هتف قائدهم.

- اكتملت حمولة هذه السيارة، انطلق أيها السائق.

تنطلق السيارة فيشير القائد لسيارة أخرى يبدأ رجاله في تعبئتها، أما قائد حملة الشرطة فيتحرك بين الضحايا بملل، يسأل متضجرًا:

- هل من تجاوزات ؟

يجيبه أحد رجاله بضجر مماثل تعبر عنه طريقة هرشه:

- لا.

يتثاءب قائد حملة الشرطة مشيرًا لرجاله:

- حسناً، هيا بنا.

يتحرك الركب مبتعدًا، وتبقى ساحة المعركة خالية إلا من البقايا، الدماء، إصبع هنا، ظفر هناك، وقدم طارت بعيدًا، وتعود حركة السير الطبيعية وتستمر الحياة العادية لهؤلاء القوم.

من مخبأ ما يظهر فائز بزجاجتين نجا من خوض المعركة، يخفي كنزه الثمين بمهارة فائقة بين ملابسه، يهرش بفرحة غامرة، يخشى من فرحته، يتلفت حوله ليتأكد أن أحدًا لم يره يهرش بهذه الفرحة، يلوم نفسه على إظهار الفرحة الحمقاء، يضبط انفعالاته، ويضبط هرشه، ويسير في الشارع بهدوء شديد كأي شخص لا يلفت نظر أحد، يدور مع دوران الشارع ثم يدلف إلى حارة ضيقة، تلفت نظره امرأة عجوز ملقاة بإهمال شديد، يتدلى لسانها خارج فمها وقد أوشكت على الموت عطشًا، تتحرك بداخله مشاعر نادرة ربما ولدها شعوره الآني بفرحة النصر، قرر أن يشكر ربه محتفلاً بنصره، تلفت حوله يمنة ويسرة وإلى أعلى وفي كل الجهات الأصلية والفرعية، تأكد – ربما للمرة العاشرة – أن أحدًا لا يلمحه، بحذر شديد أخرج إحدى زجاجتيه وفك غطاءها، فم الزجاجة يبدو ضيقًا للغاية لا يكاد يسمح بتنقيط المياه، اقترب من العجوز الموشكة على الهلاك، نقَّط على لسانها نقطة واحدة، انتشرت قطرة الماء على لسانها، رطبته، العجيب أن المرأة استشعرت الارتواء أو أقنعها عقلها بالارتواء، دخل لسانها إلى فمها، راحت عافيتها تعود إليها رويدًا رويدًا، استطاعت أن تنهض جالسة، تنظر إليه بامتنان شديد ثم انطلقت تدعو له بضراعة بالغة صادقة:

- اذهب يا ولدي، أسأل الله ألا يجعل لك ثمنًا ولا سعرًا، ربنا يجعلك تعيش حياتك هكذا رخيصًا بخسًا بلا أهمية ولا تقدير ولا اهتمام ولا حب من أحد.

نهرها بصوت منخفض، وراح يتلفت يمنة ويسرة وإلى أعلى وهو يهرش بخوف وحذر ثم فر منها هاربًا حتى اختفى، وراحت المرأة تتلفت بدورها ثم واصلت طريقها هارشة بأظافرها الطويلة وهى تغني:

المية تروي العطشان

وتطفي نار الجربان

- ألا تلاحظ هذه الدعوات الغريبة ؟!

- ألا يلفت نظرك في هذا كله إلا الدعوات !

- يا للسعادة !

- ماذا ؟

- انظر هناك.

- ماذا هناك ؟

- رزق ساقه الله إلينا.

3 - قمامة

- ورقة مالية من فئة كبيرة، سنأخذها.

- دعنا نسأل عن صاحبها، فلابد أنه قد حزن عليها كثيرًا؛ وإذا لم نجده نضعها في مسجد أو........

- دعنا من مثاليتك المغيظة هذه ، وتذكر أننا في بلد عجيب في كوكب عجيب، نحن كائنان فضائيان، ولست أعتقد أن الكائنات الفضائية تتميز بأمانتك هذه، ثم إن هذه الورقة تمثل مائة دولار.

- الغريب أننا وجدناها وسط الشارع رغم تزاحم الأقدام، كنت أتوقع أن يتصارعوا عليها كتصارعهم على زجاجات الماء.

- هذا يثبت أنها نصيبنا، أرسلها الله لنا.

- حدث هذا معي، حيث وجدت حافظة نقود – وسط الشارع – بالقرب من محطة أتوبيس، لكني لم أستول عليها بحجة أنني كائن فضائي.

- هيا نسر في طريقنا.

- انظر.. انظر.

- يا للحظ الضاحك، حظ لم أصادفه طوال حياتي على كوكب الأرض، يبدو أن الكلام الفارغ عن الكواكب والحظ والأبراج والنجوم له ظل ما.

- مائة جنيهٍ أخرى.

- هل وصل الثراء بهؤلاء القوم أن يبعثروا أموالهم هكذا في الشوارع!!

- ربما كان لديهم بعض الحمقى الذين يتفاخرون بشيء كهذا نتيجة عقدة نقص أو... أو أي شيء من هذا القبيل، هل نسيت أن بعض الأمراء كانوا يسيرون في شوارع لندن وباريس يبعثرون الدولارات!!

- لو كان الأمر كذلك هنا لهجموا على الأموال هجوم مجاذيب السيدة زينب على السيدة التي توزع شطائر الفول النابت كوفاء لنذر عليها.

- ربما لم يروا هاتين الورقتين الماليتين.

- إذن فالحظ يضحك لنا بالفعل على هذا الكوكب.

- هاها .. هاها.

- لماذا تضحك بهذه السخرية.

- انظر.

- لا شيء يلفت النظر، مجرد عامل نظافة يؤدي عمله، يوزع جهده بين كنس الشارع والهرش بجنون غاضب وعلى وجهه قرف عظيم.

- لا تنظر إليه ، بل انظر إلى ما يكنسه.

- إنه يكنس الكثير من العملات المالية من فئات متعددة ، وعملات محلية وعالمية، يبدو الشارع نظيفًا إلا من هذه النقود، يتأفف العامل، يهرش بضيق:

- هؤلاء المتخلفون لا يكفون عن رمي قمامتهم في الشارع، لست أدري ما جدوى النظافة أصلاً.

- من الذي كان يتحدث عن الحظ الضاحك ؟!

- أنت.

- بل أنت !

- النقود – هنا – مجرد قمامة.

- هيا تخلص من المائة دولار وأختها الجنيهات المائة، تخلص من هذه القمامة ليكنسها هذا العامل الحليم.

- لو فعلت الآن سيفتك بنا.

- لا أستوعب أبدًا فكرة أن تكون النقود مجرد قمامة يتأفف منها عامل النظافة، ما رأيك لو نحتفظ بالورقتين كتذكار، وسينفعان عندما نعود إلى كوكبنا.

- هذه أوراق فضائية لن تنفع عندنا.

- دعنا نقترب من هذا العامل لعله يفيدنا بشيء.

- كان الله في عونك أيها العامل.

رفع العامل رأسه بضيق شديد، وهرش بتساؤل مندهش.

- من أنتما أيها الوقحان؟ وماذا تفعلان هنا أيها الوغدان ؟!

- بداية مبشرة للغاية.

- نحن.. نحن مواطنان نبحث عن أقرب مكان نشترى منه طعامًا.

صرخ العامل بعنف مريع.

- أغربا عن وجهي أيها الكلبان، أغربا وإلا جعلت لكما ثمنًا وسعرًا.

- ما هذا التهديد الغريب الذي نسمعه هنا.

- إنكما.. إنكما لا تهرشان، لا تهرشان، لابد أنكما جواسيس.

- كلا يا سيدي لسنا جواسيس، نحن...

استل العامل مكنسته سلاحًا يقاتل به الجواسيس الأشرار الذين أسرعا بالفرار والعامل يطاردهما في محاولة حقيقية للفتك بهما مثيرًا زوبعة من الصراخ، ولكن من حسن حظهما أن الرجل – من طريقة مطاردته – تظهر عليه علامات كلل بصره مما سمح لهما بالهرب، وبقي هو يتلفت ويدور حول نفسه متراقصًا بالمكنسة، وقد تحول إلى رشاش مخيف تندفع منه قذائف الشتائم والسباب والرذاذ في كل اتجاه.

4 - البحث عن دليل

سير فى الطريق، لا سيارات ولا وسائل نقل أخرى، الطريق حافل بالمرتفعات والمنخفضات والمستنقعات والتضاريس المتنوعة التي تحكي عنها كتب الجغرافيا، وعلى جانبي الطريق بنايات كئيبة متفاوتة الارتفاعات، وعلى كل بناية لوحة ضخمة تحمل صورة لشخص خفيف الشعر، منتفخ الوجه حليقه، كبير الأنف، يسند ذقنه بإبهامه ويضع وسطاه وسبابته على خده الأيمن في محاولة للظهور بمظهر المفكر والفيلسوف الذي لا نظير له، لا يستطيع سقراط ولا أرسطو ولا أفلاطون ولا أينشتين ولا حتى ابن سينا وسائر كتيبة الفلاسفة والعلماء الكبار أن يبدو بشكل كهذا، فقد بذلت جهود كبيرة من عدة جهات وأفراد وكان للتكنولوجيا دور حيوي لتظهر الصورة بهذا الشكل.

- هذا زعيمهم أو رئيسهم بلا شك.

- هل تلاحظ ؟!

- نعم ، الصورة تقبع على صدور البنايات..

والبيوت.. وعلى المحلات والمكاتب..

والشركات والأكشاك..

وفي غرف النوم وعلى الملابس الداخلية..

- لعلَّ هؤلاء القوم ينفقون أكثر دخلهم على صور وتماثيل زعيمهم هذا.

- هل تعرف معنى هذا ؟!

- هيا نكمل سيرنا.

- نواصي الشوارع هنا واسعة كالميادين.

- بالطبع حتى تتسع لهذا.

- ما هذا ؟!

أصوات لأشخاص يحرقون بالنار على أقل تقدير.

استغاثات مريعة بلا أحد.

- اقترب كي نرى ما هناك.

رائحة بشعة للحم بشري يحترق.

أقفاص واسعة تشبه الأقفاص الحديدية التي تغلق على لاعبي المصارعة كي يدقوا عظام بعضهم البعض، داخل كل قفص أحواض صغيرة بها سوائل عجيبة، البعض غارق في هذه السوائل، أحدهم يقاوم الغرق في هذا السائل، يتلوى جسده، يناضل، يقاتل، يقاوم بكل ما أوتي من غريزة البقاء كي يلتقط بعض الأكسجين الذائب في هذا السائل العجيب الذي يبدو لزجًا يسمح – كل فترة طويلة – بدفقة صغيرة من الأكسجين تجعل الشخص لا يموت، ولكن يبقى عذاب الغرق مستمرًا، كلما أوشك الشخص على الموت الحتمي تأتيه دفقة الأكسجين ثم يعوي الجسد مقاومًا الموت مرة أخرى وهكذا في كابوس لا ينتهي.

- شخص يقف عاريًا في حوض به حمض (لم تعرفه كتب الكيمياء في كوكب الأرض) يغوص الجسد كاملاً في الحوض – عدا

الرأس – يصرخ الشخص صرخات وحشية إذ يعاني عذاب الاحتراق الذي ينتاب كل جسده ويشم رائحة لحمه يحترق، رغم أن الجسد لا يحترق على الحقيقة، ولكن يبدو أن ذلك الحمض العجيب هو المسئول عن وضع الإنسان في حالة احتراق كاملة دون احتراق حقيقي في كابوس دائم لا ينتهي.

- شخص يجري برعب شنيع فوق سير كبير يتحرك بسرعة متعالية، الشخص تنقطع أنفاسه، يسيل عرقه ودمه حتى لا يسقط في الحمض المحرق أو المغرق، ولكن- مع السرعة المذهلة للسير– يكون السقوط حتميًا في أحد الحوضين الذين يدوران بسرعة رهيبة (تحت السير) ويقذفه حظه في ألم الغرق أو عذاب الاحتراق.

- خازوق ضخم يخترق شخصًا، يمر عبر جسده ويمضي خارجًا من رأسه، وعلى مقدمة الخازوق (المخترقة للرأس) صورة كبيرة للزعيم في مشهد فانتازي مهول، الخازوق ليزري مشع يتطاير منه الشرر، مصمم بحيث لا يموت الشخص إلا بعد عدة أسابيع.

- تتم إدارة كل قفص –بشكل آلي تمامًا– من خلال سوبر كمبيوتر يقبع أعلى القفص، وفوق كل قفص تمثال ضخم لزعيم القوم.

- الناس يمرون أمام الأقفاص دون أن يلفت انتباههم ما يحدث فيها، ولا تلمس أذانهم الأصوات المنبعثة من الجحيم الآلي، حالة تبلد عجيبة تسيطر على الجميع، بعض الصبيان يلعبون بالقرب من الأقفاص، عاشقان يتهامسان بوجد ملتهب وكل منهما يهرش للآخر.

- هيا نمضي من هنا.

- نحن بحاجة ماسة إلى دليل يقودنا في هذه الرحلة الرومانسية.

- بعد اللقاء بعامل النظافة الطيب أعتقد أننا لن نجد بسهولة.

- لابد أن نجد حتى لا نظل هكذا.

- ربما لو أن الدنيا ما يمكن أن نغري به أحدهم ليقوم بهذه المهمة السامية.

- مثل ماذا ؟!

- مثل زجاجة ماء.

- ومن أين نأتى بها ؟!

- لا تقل لي نشترك في إحدى معاركهم على الماء.

- يمكننا أن نعود إلى كوكبنا المائي فنحضر آلاف الزجاجات من الماء العذب النمير، وساعتها يمكن أن.......

- إذا عدت إلى كوكبي فلن أعود إلى هذا الجحيم مرة أخرى.

- لكن لابد أن نتعرف بهذا العالم الغريب.

- أدعو ربي – دائمًا – أن يخلصني منك.

- إلى أن يستجيب الله لك فأنت مضطر لمصاحبتي، فهيا نبحث عن دليل أو زجاجة ماء نغري بها من يصلح دليلاً.

- يمكننا استخدام قدراتنا – ككائنات فضائية شديدة الثقة والاعتداد بنفسها – فندخل إحدى هذه الجمعيات التي توزع زجاجات الماء فنسرق واحدة ونخرج دون أن يرانا أحد.

- تريدنا أن نسرق قوت هؤلاء البؤساء !

- مثاليتك هذه تفقأ مرارتي وتلهب قولوني، يا سيدي تذكر أن سرقة زجاجة ستعود لأحدهم مرة أخرى ليست بسرقة بالمعنى

الحقيقى، وإذا كنت ترفض السرقة فيمكنك أن تشترك في إحدى معاركهم الطاحنة، لتنتهي ميتًا أو تتنزه في أحد أقفاصهم الحديدية.

- لا تغضب هكذا؛ لكن عليك القيام بهذه المهمة السامية.

- لا بأس، انتظرني ثانية واحدة.

- هل ست....

- هذه زجاجة ماء معتبرة.

- قد حللت المشكلة بأسرع مما يفعل جني مصباح علاء الدين.

- أمدح هذا أم سخرية ؟! كنت تريد زجاجة ماء فأتيتك بها، وإذا لم تعجبك فيمكنني إعادتها مرة أخرى.

- لا.. لا.. من حسن الحظ أن هذه رواية ليست واقعية وإلا...

- هيا نبحث عن دليل.

- انظر لهذا الرجل هناك، يبدو هادئًا متزنًا، يمكن الاعتماد عليه.

- آوه ! سيدى ! السلام عليكم أو صباح الخير أو نهارك سعيد أو أي تحية أخرى تروق لك، ما رأيك لو تحصل على زجاجة ماء.

الرجل يبدو مبهوتًا، مأخوذًا، يستعيد رباطة جأشه بسرعة متخذًا وضعًا قتاليًا كأنه مصارع محترف.

- ماذا تريدان أيها الـ....

- لا داعي للشتائم أو هذا التحفز للقتال، فقط نريد منك خدمة، وسنعطيك المقابل، زجاجة مياه كاملة.

صرخ الرجل بعنف:

- إنكما تريدان أن تجعلا لي ثمنًا، تريدان قتلي، وسأقتلكما أولاً وأبيع أعضاءكما يا أولاد الأفاعي.

وعاد فأطلق صرخة قتالية وقد ارتسم الشر في ملامحه وتطاير الشرر من عينيه، وكشر عن أنيابه وانتكش شعره وانقض و...

ولم يجد أحدًا أمامه ؛ فبسرعة البرق اختفيا من أمامه ثم سلكا طريقًا آخر.

- أعتقد أننا نتمتع بميزة هائلة فى هذا العالم.

- تذكر أن هذه الميزة بفضلي أنا.

- بفضل الله ثم بفضلك يا سيدى، ولكن هيا نبحث عن دليل آخر يكون أكثر رومانسية من هذا الذى يريد بيع أعضائنا.

- هذه السيدة هناك، ربما كانت أمًا مكافحة، تناضل من أجل أبنائها الأيتام، مسكينة لا طاقة لها بالزحام الرهيب والتعارك في حرب المياه، ولو عرضنا عليها الزجاجة التي معنا فيمكن أن...

- اختيار خاطئ تمامًا يا صديقي؛ فإذا كان الأول رجلاً مصارعًا قد خاف من عرضنا فهي ستكون أكثر خوفًا؛ فربما تعتقد أننا نريد خطفها أو مراودتها عن نفسها، فهذا النوع المكافح من السيدات يكون ذا حساسية مفرطة تجاه مثل هذه العروض المغرية.

- ربما كان الخطأ أننا عرضنا على الرجل زجاجة كاملة، فقد رأيت كيف أن قطرة ماء واحدة قد روت عطش المرأة العجوز ، إننا بعرض الزجاجة على الرجل كأننا عرضنا – في كوكبنا – على أحد السائقين مبلغ عشرة آلاف جنيًا – مثلاً – في مقابل أن يوصلنا من محطة رمسيس إلى عين شمس، فبالتأكيد لن يكون هذا السائق ودودًا معنا.

- هل نعرض عليها قطرة واحدة مثلاً أو قطرة لكل ابن من أبنائها أو........

- الأفضل أن نلجأ للأحوط والأضمن؛ فنحن لا نعرف بعد كيف يتعامل هؤلاء مع المرأة ولا شكل العلاقة بين الجنسين، فالأفضل أن نستعين برجل.

- آه! لقد تذكرت أمرًا آخر مهمًا للغاية.

- ....

- عندما تحدثنا مع الرجل نسينا أن نهرش.

- حسناً هيا بنا.

يهرشان، يشجعان بعضهما على الهرش بإخلاص، يقتربان من جمعية أخرى، الحرب على الزجاجات ضارية، مريعة، شنيعة، ينتقيان شخصًا ضعيف البنية، قصير القامة، نحيلاً كعود قصب نخره السوس، ممصوص مرتين ، وإن كان عود القصب لا يرتدي قبقابًا تغوص في فردتيه قدماه، وقف ينظر للمعركة بيأس وحكمة شديدين ويهرش بعنف، ينتقل الهرش من جسمه لرأسه بحيرة، يوقن بعدم قدرته على خوض المعركة، يمط شفتيه وينظر بسخرية ، يخاطب نفسه هانئا:

- اختر لنفسك، الموت عطشًا أو الموت فى المعركة !

يتبادلان نظرة ظافرة يقتربان منه، يهرشان، يخلصان في الهرش:

- يمكنك ألا تموت بأن تحصل منا على قطرة ماء مقابل خدمة تسديها لنا.

ينتفض مرعوبًا وقد أخذته المباغتة ، يتمالك نفسه ثم يتفحصهما بنظرة أريبة مستريبة طويلة وهو يهرش بضيق شديد وسرعان ما بدا عليه الصبر النافد فهتف:

- ماذا تريدان أيها النجسان ؟! فأنا مشغول بشدة.

- نحن نريد.....

يقاطعهما بانقضاضة مباغتة يحاول بها أن يتطاول ليخمش وجهيهما إلا أنهما كانا يتوقعان ردة فعل كهذه فتفاديا انقضاضته في الوقت المناسب فزاده ذلك غيظًا فكرر المحاولة هاتفًا:

- سأفضحكما أيها الغريبان التعسان.

- لا داعي لهذا، دعنا نتفاهم ولن تخسر أبدًا.

يحاول أن ينتفخ – وإن هدأ قليلاً – وهو يقول بخبث:

- أيها الملعونان، أنتما لستما أجربين، هرشكما يؤكد أنكما تمثلان الجرب بلا حاجة حقيقية للهرش، وهذا يعني أنكما لستما من هذه البلاد، فهيا أخبراني ما حقيقتكما قبل أن استدعي قوات أمن النظام ليتم وضعكما في أقفاص مولانا المحبوب للأبد.

- لا.. لا داعي لهذا التهور فسنخبرك بكل شيء، نحن بالفعل سائحان أجنبيان، جئنا لبلادكم العامرة كي...

يقاطعهما الرجل بضحكة ساخرة شامتة ويتقافز وهو يهرش كالقرد الملسوع بما يعني أنه ظفر بما يدينهما:

- أنتما غبيان أحمقان حماران، تريدان استحماري.

- نحن نخبرك بالصدق يا سيدي.

- أي صدق يا أولاد ال... وهذي بلاد لا سياحة فيها ولا سائحون.

- نحن سائحان ، ولكن ليس بالمعنى الذي فهمته.

- بأي معنى إذن يا أولاد المرأة الـ...

- نشكرك بشدة لسعة صدرك وعفة لسانك، نحن سائحان فضائيان، جئنا من كوكب بعيد للغاية كي نقوم برحلة إلى بلدكم العظيم هذا، ونريدك دليلاً في رحلتنا، وعندما تنتهى الرحلة فسنعود لكوكبنا ونترك لك زجاجة ماء كاملة إن أردت.

يهرش الرجل مندهشًا:

- كائنات فضائية ! زجاجة ماء كاملة! لكن هيئتكما... أقصد أن الكائنات الفضائية تكون خضراء اللون محمرة العيون أو لها عين واحدة أو عدة عيون وقرون أو... أو... المهم أنها لا تشبهنا، وأنتما مجرد بشريين لا تختلفان عنا في شيء، وهذا يعني أنكما كاذبان، ولابد أن أبلغ عنكما الـ...

- يا سيدي، هذه الكائنات الفضائية كما رأتها أفلام الخيال العلمى وكما تخيلها كتاب الروايات، معظمهم افترض أنها كائنات مختلفة تمامًا، وبالتالي حاولوا تصوير هذا الاختلاف كلٌ حسب خياله، ونسوا أن العلماء يؤكدون وجود مئات الآلاف من الكواكب تتشابه ظروفها تمامًا مع هذا الكوكب في مجرة درب التبانة وحدها، وكوكبكم هذا صورة أخرى مماثلة تمامًا لكوكبنا. صرخ الرجل ساخطًا ثم عاد فتنحنح

مواصلاً هرشه وعيناه تلتهمان زجاجة الماء بجشع متسائلاً:

- سأفترض أنكما صادقان رغم يقيني بكذبكما، ولكن ما المطلوب مني بالضبط ؟!

أسرعا بإخفاء زجاجة الماء:

- نفس المطلوب من أي مرشد سياحي يجيد عمله ويحبه ويؤديه بإخلاص وتفانٍ.

- لعنكما الله، لست أريد خطابة. سأؤدي المطلوب كما أراه أنا، وسأبدأ بأن أعلمكما كيف تهرشان هرش أهل هذه البلاد حتى لا يكون من ضمن برنامج الرحلة أن نزور جميعًا أقفاص مولانا المحبوب، ولابد أن أشارككما الاستفادة من قدراتكما الخاصة ككائنات فضائية لها اعتبارها، إن كنتما فضائيان بالفعل، تلك القدرات التى لابد اكتسبتماها من انتقالكما بين الكواكب والنجوم والعوالم المتوازية والفجوات ومثل هذا الكلام الذي استطاع به ناشرو الروايات ومنتجو أفلام الخيال العلمي أن يأكلوا عيشًا كثيرًا.

5 - العملة الرسمية

نظر الدليل إلى صاحبينا باحتقار شديد مشيرًا – من طرف خفي – إلى صورة الزعيم قائلاً:

- نبدأ أولاً – وهذا ضروري ومهم ومؤكد للغاية – بأن تعرفا حضرة صاحب المعالي ، والفخامة، والسمو، والسموق ، والعظمة، المحبوب الأوحد، والفيلسوف الأوحد، والنجم الأوحد، والحكيم الأعظم، أب البلاد، سيادة الوصي.

- سيادة الماذا ؟!

استشاط الدليل غضبًا:

- هل أصابكما الصمم! أقول سيادة الوصي.

- إذن فهو ليس سيادة الرئيس أو جلالة الملك أو فخامة الـ...

زفر الدليل بعنف:

- قلنا سيادة الوصي.

- حسنًا حسنًا يا دليلنا الهمام، وماذا عن هؤلاء ؟!

التفت الدليل إلى المعركة التي اشتد آوارها قائلاً وهو يهرش:

- هؤلاء بعض المواطنين يصرفون التموين الشهري من الماء؛ فالماء – كما لا تعرفان – سر الحياة ، وهذه المعركة – في حد ذاتها – من دلائل الحكمة البالغة لسيادة الوصي.

- كيف ؟!

عاد الدليل ينظر للمعركة التي حمي وطيسها قائلاً كأنه يكرر نصًا محفوظًا:

- في قديم الزمان، كان الحاقدون على البلاد، الإرهابيون،الخونة، الفسقة، الفجرة، أولاد الـ... يقولون إن الدعم المائي لا يصل إلى مستحقيه، وهذا محض افتراء رهيب وجهل جهول؛ فدعم الماء يصل – بمنتهى الدقة – إلى من يستحقونه، لا إلى كل مَنْ هب ودب، فمن لديه القوة والعنفوان والقدرة على الحرب يستطيع الحصول على حقه من الدعم، أما هؤلاء الغوغاء الرعاع الذين يسقطون صرعى في المعركة فهؤلاء استطاع مولانا الوصي العظيم أن يبتكر لهم دورًا يخدمون به الوطن.

- يؤدون دورًا بموتهم ؟!

زمجر الدليل مجيبًا:

- نعم.

أوشكت المعركة أن تنتهي، ووصل رجال الشرطة ورجال الإسعاف فأحاطوا بالمعركة يراقبونها بهدوء شديد، يتأكدون إلا أحداً قد استطاع الهرب وألا تجاوزات هناك.

- أخبرنا يا حضرة الدليل، ما المقصود بالتجاوزات التي يعمل رجال شرطتكم البواسل على ألا تحدث ؟!

ضحك الدليل ساخرًا وهو يهرش:

- أنتما معذوران لجهلكما، يحرص رجال الشرطة الأبطال ألا يفقأ أحد عين أحد أو يفسد شبكية عينيه أو قرنيتيه، أو يفسد الكلى أو يصيب قلبه أو يخرق أمعاءه الغليظة أو... أو...

- ولكن يا حضرة الدليل...

يقاطعهما الدليل بغضب:

- قبحكما الله، أعرف ما ستسألان عنه، المطلوب في هذه المعارك أن يموت الشخص ولكن تظل أعضاؤه سليمة تمامًا.

صمت صاحبانا في انتظار مزيد من التوضيح غير أن الدليل صمت مكتفيًا بمراقبة رجال الشرطة والإسعاف وهم يؤدون عملهم بنشاط.

- إذن كيف يتمكن المواطن الصالح من قتل مواطنه دون أن يصيب أيًا من أعضائه، وما الحكمة من ....

صرخ الدليل ساخطًا:

- دائماً متعجلان أحمقان، بإمكان كل مواطن قتل أي مواطن آخر بأن يصيبه في رأسه ، وبالتحديد منطقة المخ، فلو أصاب المخ إصابة مباشرة (كما تفعل الرصاصة مثلاً) فسيموت صاحبنا وتبقى أعضاؤه سليمة؛ فكل الأعضاء مطلوبة فيما عدا المخ.

- وماذا تفعلون بالإنسان بعد موته؟! أي كيف يخدم وطنه بجثته؟!

عاد الدليل يزفر هارشًا بشدة:

- الإنسان إذا كان حيًا سليمًا، أي (كله على بعضه) إذا بيع فلن يساوي شيئًا، فنحن بلد – والحمد لله – لا رقيق عندنا ولا استعباد

للإنسان، ولكن إذا مات فإن قرنية عينه تباع بسعر كبير، وكذلك الكلى والكبد والطحال والأمعاء و.. و..

أي بالجملة لا يساوي فلسًا؛ ولكن بالتجزئة يصبح له ثمن وسعر وقيمة، فالدولة تفضل تفكيك المواطنين وبيعهم كقطع غيار.

شهق صاحبنا وذهنه شهقة عالية و...

احمرت عينا الدليل غضبًا وتطاير منهما لهب ساخط:

- لا دهشة هنا أيها الأحمقان ، هل تريدان أن توديا بنا إلى أقفاص مولانا المحبوب ؟!

استطاع صاحبنا وذهنه أن يلملما شعورهما ووعدا الدليل بأن يضبطا انفعالهما، ورجواه أن يغفر لهما دهشتهما فهما غريبان.

تنهد الدليل هارشًا بما يعني أنه غفر لهما ثم أومأ برأسه قائلاً:

- هيا، أحرقكم الله.

- إلى أين يا حضرة الدليل الحكيم ؟

أجاب الدليل وهو يهرش ناظرًا إليهما بحقد:

- لولا زجاجة الماء التي معكما لما اضطررت إلى الصبر عليكما والإجابة عن أسئلتكم السخيفة هذه.

- لا تغضب يا دليلنا الهمام ؛ فهذا اتفاقنا، وأنت صبور حليم بالفعل.

غمغم الدليل راضيًا:

- أعرف أنني صبور حليم ولكنكما أولاد... ، سآخذكما الآن إلى مبنى "فلسفة الحياة".

- مهلاً يا حضرة الدليل، ألم تقل لنا إن الفيلسوف الأوحد هو سيادة ال... ال...

أدركهما الدليل هاتفًا:

- سيادة الوصي، قبحكما الله، حذاري من أدنى خطأ في هذا الشأن وإلا قضينا أعمارنا كلها في الأقفاص.

- حسنًا، سنحاول ألا نخطئ، ولكن ما "فلسفة الحياة" عندكم ؟

ضحك الدليل مغيظًا:

- عندما نصل ستعرفان ما تريدان معرفته و......

وفجأة صرخ فيهما كإعصار مكتوم:

- اهرشا، اهرشا – كما علمتكما – أيها الغبيان وإلا صار لكما سعرٌ كبيرٌ.

- سمعًا وطاعة يا دليلنا العظيم ، ولكن هرشكم هذا مؤلم للغاية لا نكاد نتحمله.

قال الدليل بلهجة المعلم المفضال:

- هكذا يهرش كل أجرب مخضرم.

- لا بأس فلنتحمل.

- هيا بنا.

مروا بشخصين في حالة عناق حميم تزيد كثيرًا عن اللازم يتبادلان اللكمات والركلات وكلاهما يهدد الآخر برفع سعره وعلو قيمته، والناس يمرون بجوارهما دون أن تلفت نظرهم حرارة العناق ولا اللكمات والركلات ولا الدماء الكثيرة المنبثقة عن هذه

العواطف الجياشة، وغير بعيد عامل نظافة يمتشق مكنسته يزيح بها أكوام الأوراق المالية وهو يرغي ويزيد ساخطًا على هؤلاء الذين لازالوا يحتفظون بمثل هذه الأوراق التافهة ولم يفكروا في التخلص منها إلا الآن.

- أخبرنا يا حضرة الدليل عن هذه القمامة التي تغضب عمال النظافة إلى هذا الحد.

ضحك الدليل مشيحًا بيد وهارشًا باليد الأخرى:

- هذا أمر قديم ؛ فمنذ سنوات طويلة للغاية (راح يتلفت حوله مؤكدًا على طوال السنوات) كان الناس يهتمون بهذه القمامة اهتمامًا عظيمًا، كانوا يطلقون عليها لفظًا غريبًا (الفلوس) أو لفظًا آخر (الأموال) وكانوا يدللونها بكثير من المسميات والأوصاف، وكانت محور حياتهم ومنتهى أملهم ، وكانوا يتصارعون من أجلها ويقاتلون بعضهم بغباء شديد إكرامًا لها، يتخاصمون عليها ويتصالحون بها، وكانت كل تعاملاتهم بينهم وبين بعضهم وبينهم وبين البلاد الأخرى تتم بها، كانت عصب حياتهم هذه القمامة.

- آوه ! يا حضرة الدليل، هذا شأن المال في كل زمان ومكان.

هرش الدليل بكلتا يديه بغيظ شديد وأسنانه تصطك سخطًا:

- آه ! آه ! لولا الزجاجة الحبيبة التي معكم !

- آه ! نسينا، لا تغضب منا يا دليلنا المحبوب، أكمل حديثك الحكيم، إنك تلقي بجواهر ودررًا لم نسمع بها في الأولين ولا الآخرين.

زفر الدليل هاتفًا بغيظ :

- أف منكما ! لست أدري إلى أي حد سأستطيع تحمل سخافتكما وغباءكما لكن لا بأس، توالت على بلادنا الغالية أنظمة حكم متعاقبة تألقت وتميزت وأبدعت في الفشل واللصوصية (اللهم ارفع شأن مولانا الوصي) وزادت الأسعار بمعدلات أزفت لها الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة، وتضخم التضخم وتعملق كل ثانية، وشح كل شيء ، والقيمة الشرائية للأموال تهاوى إلى أسفل دركات جهنم حتى قرر الناس أن يكفوا عن التعامل بالمال، وعادوا إلى نظام كان يستخدم في عصور وأزمان ما قبل اختراع العملة وسك النقود.

- نظام المقايضة ، سلعة مقابل سلعة.

هرش الدليل مستحسنًا:

- لم تأت المقايضة بين ليلة وضحاها، وإنما بتدرج بطيء، وبمرور الوقت حلت المقايضة محل التعامل النقدي بشكل كامل ، ولم يعد أحد – في هذه البلاد - يتعامل بالنقد، ولم تعد البلاد الأخرى تقبل عملة بلادنا، وصارت النقود بلا قيمة بالمعنى الحرفي للكلمة ، وبدأ البعض يتخلص من نقوده بإلقائها في القمامة، إلا أن البعض الآخر لم يستوعب الأمر – رغم تدرجه – فمن عاش عمره وورث من خبرة أجداده أن يدخر العملات الورقية والمعدنية ويتعامل بها ويراها هواءه الذي يتنفسه لم يتقبل بسهولة فكرة الاستغناء عن النقود ، وأصيب البعض بصدمات عصبية وعدم تصديق وإنكار نفسي للأمر، وكنت تجد الرجل يمسك بالرزم فيبعثرها في الشارع فيسرع البعض بجمعها غير مصدقين أنها مجرد قمامة، وبدأ البعض يستوعب ويتقبل الأمر بعد أن حمل هذه النقود – مرات – إلى المحال التجارية والمصالح الحكومية والخاصة فيقابل بالهزء والسخرية والسخط والتهديد فيعود إلى بيته فيتخلص مما عنده، وألقيت في القمامة مليارات

ومليارات من العملات والجميع يتعجب من الجميع، فكيف كانوا يتشكون ويصرخون من الفقر والعوز وهم يملكون كل هذا، وأغلقت البنوك أبوابها بعد أن تخلصت مما لديها.

- وبالطبع كان هذا عبئًا على عمال النظافة.

هرش الدليل بعنف:

- أتعرفان أيها الوغدان، رغم ضيقي منكما ورغبتي الجارفة في رميكما في أقفاص مولانا الوصي، وأن موافقتي على مرافقتكما كانت من أجل الزجاجة إلا أنني أجد متعة في الحديث، أنا أتكلم وأتكلم وأنتما تسمعان، فنحن قوم لا نسمع بعضنا، ولا طاقة لنا – على الإطلاق – بأن يسمع أحدنا من الآخر جملتين كاملتين، لذا فإنني عندما أحدثكما حاولا ألا تقاطعاني.

- هل يعني هذا يا دليلنا العظيم أنك مستعد للتنازل عن الزجاجة مقابل هذه المتعة ؟!

زمجر الدليل، ولمعت عيناه، وكشر عن أنيابه، وصرخ عاويًا كذئب جريح:

- بل يعني أنني سألقيكما الآن في أقفاص الوصي.

- هاها.. لا تغضب أيها الدليل الحليم، نحن نمزح معك فقط.

- مزاحكما قبيح.. مزاحكما قبيح.. مزاحكما قبيح.

- حسنًا حسنًا، لا تغضب، لن نمزح مرة أخرى، نحن آسفان، نحن مخطئان، والآن أكمل حديثك الرائع المسلي الحكيم ال.. ال...

عادل الدليل يزمجر دون حديث فقالا له:

- إكرامًا لمولاك الوصي، أكمل حديثك.

راح الدليل يهتف بحماس حنجوري وهرش مجنون:

- بالروح بالماء نفدي مولانا الوصي، بالروح بالماء نفدي مولانا الوصى، بالروح بالماء نفدي مولانا الوصي، بالروح..........

أخذ يكرر الهتاف بهستيريا عجيبة حتى فكر صاحبانا في الهرب منه إلا أنهما تراجعا عن هذه الفكرة لأنهما لا يضمنان أن يجدا دليلاً كهذا مرة أخرى، وهدأ الدليل أخيرًا وانتظمت أنفاسه وراح يحكي:

- كان الأمر بالفعل عبئًا على عمال النظافة الذين اقتصر دورهم (أو كاد) على جمع هذه القمامة ونقلها إلى أماكن بعيدة لحرقها، وكلما ظن الناسُ أن الناسَ قد شفوا تمامًا من أمر هذه النقود (القمامة) يفاجئوا بها – بين وقت وآخر – ملقاة في الشوارع.

- وهل لازلتم تتعاملون بالمقايضة ؟

سعل الدليل مرتبكاً وهرش بعنف:

- لا.. لا.. التعامل أصبح بعد ذلك بالماء، العملة الرسمية زجاجات الماء العذب مثل التي كان الناس يتناحرون عليها منذ قليل، والزجاجات لها أحجام مختلفة، أكبرها الزجاجة اللتر، وأصغرها زجاجات تحوي الواحدة قطرة أو قطرتين، أي أن الزجاجة التي معكما تعد كنزًا كبيرًا لذا فأنا مضطر لتحملكما.

- ولماذا لم يستمر التعامل بالمقايضة ؟!

أسرع الدليل يهرش بحماس مهيب مجيبًا:

- المقايضة نظام متخلف، نظام غير عملي، نظام قبيح، نظام إرهابي ، نظام قديم، نظام يفيد أعداء الوطن، نظام يهدد أمن البلاد، نظام كرهه الشعب، نظام ...

- إذن فمن ألغاه هو فخامة الوصي.

هرش الدليل فى رأسه ضاحكًا بغباء حقيقي أو مصطنع قائلاً:

- لولا أننا لا نندهش لاندهشت من معرفتكما لهذه المعلومة، فمن أخبركما بها قاتلكما الله؟!

- لا عليك يا دليلنا العظيم، لكن أخبرنا عن سبب ندرة الماء لديكم هكذا ؟! ألا يمكنكم الحصول عليه من الأمطار أو الآبار أو العيون أو تحلية مياه البحار؟!

لقد ذكر علماء الجيولوجيا أن الله (سبحانه وتعالى) قد خلق كميات هائلة من الماء العذب تكفي جميع البشر عدة مرات، لكن البشر لا يحسنون توزيعها ولا استغلالها. تقافز الدليل وهو يهرش في ظهره محاولاً الوصول بأظافره إلى منطقة بعيدة يأكلها الجرب في ظهره هاتفاً بغيظ:

- أيها الأحمقان، أيها الأجربان، أعرف أن نهايتي ستكون على يديكما، ولكن زجاجة الماء الملعونة التي معكم أيها ال.....

- ماذا أغضبك مرة أخرى يا دليلنا العظيم ؟!

زفر الدليل بضيق شديد:

- لفظة "العلماء" هذه من الكلمات المحرمة هنا، فلا تكرراها مرة أخرى، لقد نطقتماها للمرة الثانية.

- حسنًا، لن نكررها فلا تغضب، لكن لماذا هي محرمة ؟!

عاد الدليل يزفر وصوت أنفاسه يعلو بانفعاله الشديد:

- محرمة لأنها.. لأنها محرمة.

- عرفنا أنها محرمة لكن لماذا ؟!

قال الدليل بغيظ:

- كنت أنوي الذهاب بكما إلى مبنى "فلسفة الحياة" أليس كذلك؟!

- بلى.

- حسناً، هيا بنا.

- هل نعتبر هذا هروبًا من السؤال ؟!

سعل الدليل سعالاً مصطنعًا ثم قال:

- هل يمكنكما الهرب بنا من أي مكان دون أن يتعرفنا أحد ؟!

- بسهولة ، لقد فعلناها.

نظر الدليل للأفق وهو يهرش:

- إذن لن أهرب من أي سؤال، ولكن هيا إلى "فلسفة الحياة".

6 - فلسفة الحياة

"مرحبًا بكم في فلسفة الحياة".

قال الدليل بحماس شديد:

- المبنى ينقسم إلى عدة أقسام، أولها الاستقبال، حيث يتم تصنيف الحالة وتوزيعها على القسم المناسب، وهناك قسم الولادة، وقسم الرحمة، ثم بقية الأقسام، وهي عبارة عن مشارح بعدد أعضاء جسم الإنسان؛ فكل عضو له مشرحة خاصة به، انظرا، هذه مشرحة القلب، بجانبها مشرحة الكلى، وهناك مشرحة الـ...

- هذه مستشفى إذن يا حضرة الدليل.

أصدر الدليل صوتًا معترضًا وسبة فظيعة ثم قال:

- هذا ليس "مستشفى"، وهذا اللفظ لا مكان له في بلادنا على الإطلاق.

- إذن كيف تداوون مرضاكم ؟!

ابتسم الدليل بحكمة:

- قسم الرحمة هو المسئول عن أي شكاوى صحية.

- هل ما نتوقعه صحيح ؟!

أطلق الدليل ضحكة وقورة :

- نعم صحيح تمامًا، فهذا القسم مسئول عن تخليص الإنسان من آلامه وأوجاعه ومعاناته، الرحمة حلم كل موجوع، ونحن نرحم المرضى ونرفع قيمتهم بأسلوب غاية في الرقي والتحضر فلا يشعر المريض بأدنى ألم.

- ....

هتف الدليل غاضبًا.

- اتفقنا ألا دهشة أيها الأوغاد.

- نفس نظرية خيل الحكومة.

ضحك الدليل بجزل ساخر:

- نحن لا ننتظر حتى يصل المريض لمرحلة أن يكون خيل حكومة.

- هل تقصد أن الإصابة بنوبة برد أو صداع أو التواء بالكاحل أو جرح قطعي أو دمل في القفا أو ......

أطلق الدليل صوتًا قبيحًا يدل على الاعتراض:

- وهل هذه أمراض سهلة ؟!

- هكذا فإن أطباء قسم الرحمة يعانون من البطالة.

- يساعدون الآخرين.

- فقط !

اتخذ الدليل سمت الحكيم:

- جسد الإنسان يملك طاقات هائلة وقوى قد لا يعلم صاحبه عنها شيئًا، منها قدرته على مقاومة الأمراض، ولذا فإن مولانا الوصي – رفع

الله شأنه وأطال عهده – يستنفر أجساد المواطنين، يستفزها، يقدح شرارها كي تبدع في استجابتها لنداء الطبيعة، فبالعودة إلى الطبيعة (أمنا الحانية) يشفى الإنسان من أمراضه ذاتيًا، وتقوى أجهزة جسمه المناعية وتكتسب قدرات خرافية دون أدنى حاجة لأي أدوية أو عقاقير، وبذلك استطعنا الاستغناء تمامًا عن شيء قبيح كانوا يطلقون عليه علم "الفارماكولوجي".

- أي أن بلادكم تخلو من الصيدليات.

تخلى الدليل عن سمت الحكيم وركبه الحماس:

- انظرا إلى الجدوى الاقتصادية الهائلة نتيجة هذا الاستغناء عن كل الأدوية ، وانظر أيضًا إلى جدواه ال... ال...

- الماذا أيها الدليل ؟!

تنحنح الدليل حائرًا في اختيار الكلمة المناسبة وسرعان ما وجد مخرجًا فتدفق قائلاً بحماس:

- هذا الاستغناء لا يجعلنا نقع تحت طائلة الدول الأجنبية، فكلما قل احتياجك صار بإمكانك أن تشمخ بأنفك..

هكذا قال وخطط سيادة الوصي أطال الله عمره.

صمت الدليل لحظة ثم عاد ينظر باحتقار إلى صاحبيه:

- هيا بنا إلى قسم الولادة.

- ولماذا لا تكون الولادة أيضًا دون أدوية أو أطباء وممرضات ؟!

انتفخت أوداج الدليل وهو يقول مشيرًا بإصبعه دون أن يتخلى عن الهرش المحموم:

- لا.. إلا الولادة، الدولة – أعلى الله مراتبها وأطال بقاء مولانا الوصى – تولى الولادة رعاية فائقة واهتمامًا بالغًا، وكما تلاحظان، فإن هذا القسم كبير للغاية، وينقسم إلى عدة عنابر، عنبر للولادة الطبيعية، وعنبر لأطفال الأنابيب، والأهم عنبر الاستنساخ وعنبر الأرحام الصناعية.

- استنساخ وأرحام صناعية ؟! ألا يبدو في هذا ...

قاطعهما الدليل بضيق شديد:

- لا تعليق، ولا دهشة أيها الأحمقان، وسأفسر لكما ما تريدان.

- نحن بانتظار تفسيراتك وفلسفة وصيكم يا دليلنا العزيز.

تنحنح الدليل متخذًا وضع الحكيم النابه:

- يؤكد مولانا الوصي أن البشر في بلادنا هم ثروتها الحقيقية ؛ فهم عماد الاقتصاد بها؛ لذا فلابد من الإكثار منهم بأي طريقة، ومن ثم فإن التفريخ والتلقيح وال....

- التفريخ مطلوب لإحداث التوازن مع جهود قسم الرحمة ومعارك التموين الشهري و......

جحظت عينا الدليل بالغضب وراح يجذب شعره صارخًا:

- لا تقاطعاني أيها الوغدان الأحمقان، لا تقاطعاني.

- ....

- لا بأس ولكنكما تستحقان رفع قيمتكما أو الأقفاص، هيا إلى المشرحة، وهذا هو القسم الأكبر في أي مؤسسة "فلسفة الحياة". نحن الآن في عنبر الكلى،حيث تأتي الكلى من قسم الرحمة أو الاستقبال فيتم

تصنيفها ومعالجتها وحفظها وإعدادها للتصدير للخارج - بكميات ضخمة – وهكذا يتم في بقية العنابر مع بقية الأعضاء.

ظهر الفخر على ملامح الدليل وانتفخت أوداجه وهو يستطرد:

- نحن نصدر إنتاجنا من الأعضاء البشرية إلى معظم دول العالم، فهذه الأعضاء هي المصدر الرئيس لدخلنا القومي.

- لم يتمالك صاحبانا أعصابهما فارتبكت معدة كل منهما بشدة وأفرغت ما فيها بصوت يذكرك بالسيدة التي تحاول إغاظة حماتها بحملها وتحاول إعلام الجيران وجيران الجيران بالحدث السعيد.

ولكن الأمر هنا لم يكن سعيدًا –بالنسبة لهما ولدليلهما– على الإطلاق إذ سرعان ما وجدوا أنفسهم وسط دائرة من البشر الغلاظ الشداد مفتولي العضلات من ذلك النوع الذي يعمل كحرس خاص (بودي جارد) في الأفلام، وعيونهم تلمع بلذة الافتراس وقد هتف أحدهم بجزل:

- مرضي.. مرضي.. خذوهم إلى قسم الرحمة.

صرخ الدليل مستغيثًا بغضب قاصف ورعب رهيب:

- قدراتكما الفضائية أيها الوغدان.

اختفى ثلاثتهم في الحال ثم وجدوا أنفسهم يسيرون في شارع كبير بمدينة أخرى والدليل يقول بفرحة:

- لقد نجونا، لم أكن أثق مطلقًا في قدرتكما الفضائية هذه ولكن الله سلَّم.

- لا تقلق يا دليلنا العزيز؛ فنحن كائنان فضائيان من النوع الأصلي وليس من النوع الصيني أو التايواني، ولكن أخبرنا، لماذا تطلقون على هذا المبنى الرهيب اسم "فلسفة الحياة" ؟!

اتخذ الدليل سمت الحكيم:

- يقول مولانا الوصي (الفيلسوف الأوحد) "إن الحياة هي تلك المسافة بين حجرة الولادة وحوش القرافة" وحوش القرافة هنا هو قسم المشرحة، وتلك فلسفة حياتنا.

- على رسلك يا دليلنا الهمام، هذه العبارة قالها كاتب ساخر لدينا يدعى محمد عفيفي.

هرش الدليل بعنف شديد وصرخ وعيناه تجحظان بشكل عجيب:

- أيها الكاذبان، أيها الحقيران، ساخركم هذا سرق عبارة سيادة الوصي؛ فهو الفيلسوف الوحيد، والحكيم الوحيد، والعالم الوحيد، والمفكر الوحيد.

7 - في بيت الدليل

قال الدليل هارشًا في رأسه:

- أنا جائع.

- هيا الى أقرب مطعم.

رد الدليل بقرف:

- لا مطاعم لدينا.

- إذن هيا إلى بيتك، سنأكل هناك ، الأكل المنزلي أفضل بالتأكيد.

انفجر الدليل بغضب عارم :

- سآكل في منزلي بصيغة المفرد الحبيب، لا صيغة الجمع السخيفة هذه.

- أنت كريم للغاية.

ابتسم الدليل راضيًا ، وتوجه الجميع إلى البيت، شيء ما بين العشة والقبر، منخفض السطح الذي يتدلى منه مصباح كهربي مسكين لعله أول مصباح اخترعه أديسون، يحيط به العنكبوت، وحفرة مستطيلة الشكل بطول شخص نائم وكيس من البلاستيك

متكوم فوق الحفرة، وبجانب الحفرة المستطيلة كومة كبيرة من التراب، صندوق حديدي مدفون في الأرض لا يظهر منه إلا قفل ضخم، وفي صدارة المكان تليفزيون، وفوق التليفزيون صورة ضخمة للوصي تبتلع الحائط كله تقريبًا.

انحنى الدليل بشكل مسرحي قائلاً بمرح:

- أهلاً بكما في منزلي الفخم.

أسرع فأشعل شمعة أضفت ظلالاً زادت من كآبة المكان، ونظر لضيفيه متسائلاً:

- هل يستطيع كل منكما أن يرى أمامه وأن يحدد تضاريس المكان؟

- هاها.. هاها.. تضاريس! أنت خفيف الظل يا دليلنا الجميل.

زفر الدليل بعصبية:

- أجيبا بسرعة.

- نعم.. نعم.. نستطيع.

أسرع الدليل فأطفأ الشمعة قائلاً بارتياح :

- ستتعود عيونكما جو المنزل دون حاجة لهذه الشمعة .

- لكن يا حضرة الدليل...

قاطعهما هاتفًا:

- لكن ماذا ؟!

- جميل ورائع وممتع يا دليلنا أن في منزلك العامر كهرباء بدليل وجود التليفزيون والمصباح.

قال الدليل بحماس شديد:

- نعم لدينا كهرباء، فنحن دولة متقدمة للغاية ، تنتج الكهرباء من طاقة الشمس وطاقة الرياح، ومحطات الكهرباء منتشرة حتى أنك تعتقد أن بين كل محطة كهرباء ومحطة كهرباء محطة كهرباء.

- لماذا إذن أشعلت الشمعة ؟!

أجاب الدليل هادئًا:

- لأن الكهرباء لا تأتي إلا مرتين كل عام، يوم خطاب فخامة مولانا الوصي ويوم المباراة.

- لماذا إذن أطفأت الشمعة ؟!

ضحك الدليل مجيبًا وهو ينوي تمزيق جسده هرشًا:

- ترشيدًا للاستهلاك.

- لماذا أشعلت الشمعة أصلاً ؟!

أجاب الدليل بحكمة هادئة:

- ترحيباً بكما، فأنتما – قاتلكما الله - ضيفان تدخلان منزلي الفخيم لأول مرة.

- شكرًا لك يا دليلنا الكريم، هل معنى هذا أنك تراجعت عن قرارك الأول، ونويت أن تدعونا لنشاركك الطعام ؟!

صرخ الدليل ضاربًا صدره بيديه:

- لا أيها اللصان، أنتما لصان، أنتما لص00000

- نحن آسفان آسفان، ولن نأكل معك فاطمئن.

هدأ الدليل واقترب من الصندوق الحديدى، وظل يتلفت حوله بحذر شديد، وينظر لضيفيه باتهام ثم أخرج مفتاحًا سرعان ما دسه في القفل ملتفتا إلى ضيفيه بنفس نظرة الاتهام:

- أغمضا عيونكما.

- حاضر.

- أغمضا عيونكما وحذاري من الخيانة.

- اطمئن.

عاد الدليل فأخرج المفتاح وعاد للتلفت، ورفع باب الصندوق المدفون مخرجًا علبة صغيرة، وعاد فأغلقه وراح ينظر للعلبة باستمتاع ثم فتحها بهدوء فإذا بها شيء يشبه المعجون أو البلسم، وسرعان ما راح يلتهم هذا المعجون بشراهة بطريقة أثارت تقزز ضيفيه تقززًا مريعًا حتى كاد أحدهما أن يفرغ معدته للمرة الثانية في هذه الرواية، وحاولا تعطيله عن افتراس العلبة فسألاه:

- أين أسرتك يا حضرة الدليل ؟!

كانا واثقين أنه لن يعيرهما اهتمامًا حتى ينتهي من علبته ثم ينثني فيأكلهما أنفسهما إلا أنهما فوجئا به يتخلى عن علبة طعامه وينتفض منتصًبا يهتف كمن يترافع في محكمة كل من فيها يعاني من الصمم:

- أنا لست متزوجًا ولا أسرة لي لكنني حريص تمامًا أن أزور دار "فلسفة الحياة" في الموعد الرسمي كل أسبوع (حيث قسم الولادة) لأسلمهم عينة من ال00 ال00 من الإنتاج الذكوري الطبيعي الذي يمثل الشق الأول من المادة الخام التي تعمل بها الأرحام الصناعية لكي تستمر مسيرة الإنتاج والنهضة والتقدم في وطننا الغالى.

- ولمن ينسب أبناء الأرحام الصناعية ؟!

أجاب الدليل عائدًا إلى علبة طعامه:

- هؤلاء أبناء الدولة.

انتهى من طعامه فأسرع بإخفاء العلبة الفارغة في الصندوق ثم أغلقه بإحكام مخفيًا المفتاح، ثم دار حول نفسه وهو يهرش ثم يفرك كفيه ويعود يهرش ناظرًا بضراعة إلى ضيفيه حتى سألاه أن كان يريد شيئًا فابتسم بود قائلا برقة مصطنعة:

- لقد خدمتكما بإخلاص منذ التقيت بكما (في هذه الرواية الشنيعة) ومن حقي جزء من الأجر.

- سنعطيك ما تريد جزاء هذا الود الذي لم نره منذ أن وطأ ذهننا بلادكم العامرة، رغم أن الاتفاق ألا تنال شيئًا إلا بنهاية الرحلة المجيدة ، هيا أخرج لسانك.

نال الدليل قطرتين من الماء فبدا سعيدًا مرتويًا وأخذ يتقافز هارشًا مغنيًا:

المية تروي العطشان

وتطفي نار الجربان

- أخبرنا يا حضرة الدليل، ماذا لو أن أحدكم (بشكل ما) شرب زجاجة كاملة كهذه دفعة واحدة.

هتف الدليل هارشًا بشدة:

- يا إلهي! لكأن أحدكم فوجئ بأنه قد فاز برحلة لمدة أسبوع كامل يقضيه على سواحل الريفيرا بصحبة حسناوات هوليود بإمكانيات بيل جيتس.

- ما الذي جعل أجسادكم كهذا ؟!

أجاب الدليل متخذًا سمت الحكيم:

- سيادة معالي الوصي اكتشف أن في جسد الإنسان قدرات مهولة، تفوق الخيال بمراحل متعددة، هل تعرفان الفقير الهندي الذي يستطيع أن يعيش لعدة أيام تحت الماء، والذي يرقد ويرتفع جسده عن الأرض في تحد سافر لقانون الجاذبية الأرضية، والذي يستطيع أن يعيش شهوراً بلا ماء؟!

- هذه قدرات خاصة جدًا لا يصلون إليها بسهولة، وإنما بعد مرنة وتدريبات ومعاشرة طويلة لرهبان التبت وربما لا يعدو الأمر أن يكون مجرد خداع ،فالأمر محل جدل و.........

قاطعهما الدليل ولازال متخذًا سمت الحكيم:

- جسد الإنسان إذا وضع في مواقف معينة تظهر مثل هذه القدرات، فمثلاً عندما ينهار عقار على من فيه – كما يحدث في بلادكم كل يوم – وتمر أيام طويلة يستخرجون بعدها الجثث يفاجئون بوجود أحياء استطاعوا التكيف مع الظروف الجديدة، وحدثت في أجسادهم تغيرات لتلائم الوضع الجديد، وهناك نباتات تستطيع الحياة في الصحراء القاحلة، فالله (سبحانه وتعالى) يزودها بقدرات خاصة تساعدها على هذه الحياة، والأمر في بلادنا يشبه مثل هذه الأمور، فأجسادنا صارت تمتلك مثل هذه القدرات نتيجة التغيرات الحادثة فيها، فترانا – مثلاً – لا نفرز عرقًا – كما تفعلون – كي تحافظ الأجسام على نسبة الماء بها.

- وبالتأكيد قد ضعف وضمر جهازكم البولى فلم يعد يعمل.

قال الدليل هادئًا:

- هذا صحيح إلى حد ما.

كيف تتخلص أجسادكم من النفايات والسموم والأملاح الزائدة التى كان يحملها البول ؟!

أجاب الدليل كأنه معلم ابتدائي في حصة العلوم:

- الجهاز الهضمي يقوم بالمهمة.

- لكنكم تصدرون الكلى إلى الخارج.

رد الدليل ولازال في حصة العلوم :

- الكليتان تقومان بعملهما حسب الظروف الجديدة مع بعض التعديلات والتبديلات، وعندما تنتقل إلى جسم يحيا في ظروف مختلفة عما نحن فيه فإنهما تعملان بشكل طبيعي.

- وما هذا الطعام الذي تناولته منذ قليل ؟!

تنحنح الدليل بحذر وقد عاوده الغضب:

- قلت لكما: لا طعام لكما، إنه طعامي وحدي.

- لن نأخذ منك شيئًا، فنحن متقززان من طعامك هذا ومن طريقتك في تناوله، نحن نسأل عن ماهيته.

عاد للدليل اطمئنانه فقال بمرح:

- فلتعذراني، فإن هذا الطعام يصرف كتموين شهري، فالمواطن يحصل على ثلاثين علبة كل شهر، وفي نهاية الشهر يعيد الفوارغ للدولة ليحصل على العلب الجديدة، ومعها أيضًا شمعة واحدة.

- وهل هذه العلب تصل لمستحقيها فقط كزجاجات الماء ؟!

اندفع الدليل يرد بحماس:

- لا..لا.. العلب الثلاثون يحصل عليها كل مواطن، كل مواطن، وهذا بالطبع بفضل فخامة سيادة الوصي.

- وكيف تصنعون هذا الطعام العجيب ؟!

أجاب الدليل متفاخرًا:

- نستورده بفضل سيادة الوصي.

- ومن أين تأتون بال... نقصد من أين يأتي لكم سيادة الوصي بالماء ؟!

زاد فخر الدليل وانتفاخ أوداجه وهو يجيب:

- يستورده لنا.

- ألا يمكنكم استغلال المياه الجوفية أو تحلية مياه البحار؟!

هرش الدليل ضاحكًا:

- هذا ممنوع تمامًا، لأن هذا الحق محفوظ لشركة أجنبية تستخرج الماء وتبيعه لنا، ولو حاولنا تحلية مياه بحارنا فإن هذه الشركة ستلجأ للتحكيم الدولي، ونحن عاطفيون للغاية، تغلبنا عواطفنا ويهزمنا الحنان أمام أي قضية مرتبطة بالتحكيم الدولى.

- ولكن يا حضرة الدليل العليم، ألم يكن في هذه البلاد نهر كبير؟!

يزفر الدليل هارشًا بضيق شديد معترضاً:

- يا فتاح يا عليم ، كان يا سيدي ، كان.

- أين هو ؟!

- لم يعد يأتي.

- لماذا ؟!

- هذا تاريخ قديم ، قديم للغاية ، قبل أن ينعم الله علينا بالمنقذ مولانا الوصي.

- عرفنا أنه تاريخ قديم، لكنك لم تجب، لِمَ لَمْ يعد النهر يأتي ؟!

تأفف الدليل هارشًا:

- باعوه.

- لمن ؟!

- لكيان لقيط لكنه صديق شقيق، بيننا وبينه غرام وهيام تاريخيين وحوار دموي طويل.

- كان هذا في عصر الأموال، أليس كذلك ؟!

- بلى.

- ماذا فعلوا بالأموال التي باعوا بها ؟!

- ذهبت هذه الأموال لإعادة هيكلة الكيانات المتوازية لا طرديًا مع أيديولوجية بنية العلاقات المتداخلة والمتزامنة في ديناميكية الفكر الحراري المتوائم مع علامات الاستاتيكا المتزلجة فوق حوائط التمركز الحضاري اللاجمعي.

- ما هذا الهراء يا دليلنا العظيم ؟!

هرش الدليل غاضبًا وصاح بعنف:

- هكذا قالوا لنا وقتها.

- واقتنعتم ؟!

هرش الدليل مبتسمًا ابتسامة خجولة:

- أقنعونا.

- كيف ؟!

أشار الدليل إلى التليفزيون متسائلاً:

- ما رأيكما فى الأجهزة الكهربية في منزلي؟!

- ومن لم يقتنع ؟!

راح الدليل يحك ظهره بالحائط بشكل أصدر صوتًا مخيفًا وهو يقول ساخرًا:

- رجال الشرطة والمخابرات لهم وسائل شديدة الإقناع.

- بقي شيء يا دليلنا المحبوب.

كف الدليل عن حك ظهره بالحائط واقترب منهما وهو يهرش بغيظ شديد:

- لا داعي لحكاية "المحبوب" هذه، قبحكما الله؛ فالمحبوب الأوحد في هذه البلاد هو سيادة الوصي.

- حسنًا، بقي شيء يا دليلنا الممقوت.

عاد الدليل ليحك ظهره بالحائط مبتسمًا برضاً:

- ما هو قاتلكما الله ؟!

- المطر.

ضحك الدليل وهو يهرش بيديه ويواصل حك ظهره بالحائط:

- المطر هذا قصته قصة؛ فهناك منظمة إرهابية عالمية عتيدة في عالم الإجرام ولها أذرعها الطولى على مستوى العالم استطاعت أن.....

- استطاعت سرقة كل السحب فى بلادكم ؟!

أجاب الدليل بضيق:

- لا يا ظريف ، فبلاد سيادة الوصى لا يستطيع أحد سرقتها، وإنما استطاعت هذه المنظمة توقيع عقد مع السلطات (قبل بيع النهر) يسمح لها باحتكار حق الانتفاع بماء المطر لمدة مائة وتسع وتسعين سنة.

- ولماذا لم يكملوا المائتين؟! هل خافوا من الضرائب؟!

- زفر الدليل غاضبًا:

- لست أريد استظرافًا.

- حسناً، دعنا من هذا، كيف يسيطرون على ماء المطر في طول البلاد وعرضها؟!

ضحك الدليل مجيبًا:

- لديهم طائرات تقوم برش السحب بمادة لا أدري كنهها تجعل كل السحب تتجمع – بسرعة كبيرة – في منطقة محددة ليسقط المطر كله في المنطقة التي يريدونها حيث خزاناتهم الخاصة المحاطة بحراسات من الحديد والنار.

صمت الدليل لحظات ثم غيَّر نمط الهرش متثائبًا وقال لضيفيه:

- والآن أحتاج للنوم.

- اتجه للحفرة المستطيلة فرقد فيها وغطى نفسه بالكيس البلاستيك، ثم قام بجذعه وراح يجذب من كومة التراب ويجذب حتى غطى بها الكيس، وعاد ليرقد متغطيًا بالكيس المغطى بالتراب الثقيل قائلاً لضيفيه:

- تصبحا على شر!

- كيف سننام نحن ؟!

كشر الدليل صارخًا:

- لا شأن لي بكما، أنتما كائنان فضائيان تستطيعان إدارة شئون أنفسكما بأنفسكما.

8 - مباراة تاريخية

يوم غير عادي، تجمعات بشرية كبيرة في عدة أماكن، والكل يهرش بحماس شديد والمناقشات ساخنة للغاية مرشحة بسهولة لتصير معارك ضارية.

- ما هذا يا حضرة الدليل ؟! أهو احتفال بعيد ما؟!

ضحك الدليل وهو يهرش بحماس لم يره الضيفان منه منذ التقيا به ثم تساءل:

- أيهما تشجعان؟! الأهلى أم الزمالك ؟!

- ماذا ؟! هل أنتم أيضًا لديكم أهلي وزمالك ؟!

هتف الدليل وحماسه يطغى:

- لم يجب أحدكما عن سؤالي!

- يا له من سؤال صعب شديد الإحراج!

- أيهما تشجع أنت يا حضرة الدليل؟

عاد الدليل يهتف وحماسه يتعالى:

- أخبراني أولاً.

- أشعر أننا لو أخبرناه بفريق لا يريده سيسلمنا لجماهير الفريق المضاد.

- لابد أن نتصرف.

- يمكننا أن نقول: إن أحدنا أهلاوي والآخر زملكاوي.

- هذا خطر على أحدنا.

- نحن زمهلاويان يا دليلنا الهمام، وأنت ماذا تشجع ؟!

أجاب الدليل بصوت مرتفع:

- أنا أشجع مانشستر، فالكرة هنا جربانة.

- الكرة فقط ؟!

- ماذا تقصدان ؟!

- نقصد أنك أحسن دليل رأيناه في حياتنا.

تأفف الدليل وهو يرد المجاملة بذوق شديد:

- الله يحرقكم ! والآن هيا إلى المقهى أو الأستاد كي نوقع بالحضور، وكي تلتقطنا الكاميرات ونترك البصمات.

- كل هذا كي نشاهد مباراة يا دليلنا الهمام ؟!

زمجر الدليل غاضبًا:

- هكذا النظام هنا.

- لكن بالتأكيد – بأخلاقكم الفاضلة وتسامحكم المذهل – ستندلع معارك أشنع من حروب العصر الجاهلي، ويمكن أن تعلو قيمتنا في بورصة الأعضاء البشرية.

هرش الدليل بحكمة:

- هذا محتمل، ولكنه مؤكد الحدوث لو تخلفنا عن حضور المباراة فى الأستاد أو في أي مقهى.

- هيا إذن كي نحجز مكانًا متميزًا.

أتموا إجراءات الحضور، وكان مكانهم في منطقة وسطى من الكتلة الجماهيرية، والتليفزيون الضخم يعرض عدة إعلانات قبل بدء المباراة.

- إعلان عن "هراشة" الكترونية.. الهراشة الشقية، تساعدك أنت وهي، على الهرش بمنتهى الأريحية.. الهراشة الكهربائية توفر وقتك الثمين وجهدك العظيم.. الهراشة الكهربية تستطيع أن تهرش لك في كل مناطق جسدك خاصة المناطق التي لا تستطيع حوافرك – عفوًا نقصد أظافرك – أن تصل إليها، سارع باقتناء الهراشة الشقية لأن الكمية محدودة، ومَنْ لن يشتري الهراشة الشقية فستكون حياته شقية ونهايته في الأقفاص المحمية.

- إعلان الموت الممتع.. عزيزي المواطن، هل كرهت حياتك؟! هل يؤلم مشاعرك أن تكون رخيصًا بلا ثمن؟! هل تحب مفارقة هذه الحياة الفانية ؟! نحن نوفر لك الموت ليس فقط بدون ألم، وإنما بمتعة لا توصف، متعة خاصة لا يستطيع وصفها حقيقة إلا مَنْ ذاقها، هناك موت بطعم الفواكه المتعددة، وموت بطعم ألذ المشروبات التاريخية، لا أحد يحقق هذا إلا نحن، هيا، نحن بانتظارك كي نرفع قيمتك ونعلي من شأنك، نحن نزفك للجنة.

وهكذا ظلت الإعلانات تتوالى بلا توقف حتى ظهر ملعب المباراة وسط عاصفة من الهرش المتحمس، الأستاد أضخم كثيرًا من أي أستاد يمكن أن تراه في كوكب الأرض، ربما هذا الأستاد أضخم من أستاد القاهرة لعشر مرات على الأقل، الملعب مهول الحجم، وكذلك

المدرجات التي يمكنها أن تسع مليون مشاهد بسهولة، وفوق المدرجات توجد أقفاص حديدية كالمنتشرة على نواصى الشوارع، وأصوات المعذبين فيها تتعالى متنافسة مع هتافات الجماهير، وفوق الجميع صورة ضخمة للوصي تكاد تبتلع الأستاد ومن فيه، دقائق مرت ثم بدأ اللاعبين في دخول الملعب وقد ارتسمت على وجوههم التكشيرات المتوعدة.

- ما هذا يا حضرة الدليل ؟!

- ماذا ؟!

- الفريق الأبيض يتكون من مائة لاعب، وكذلك الفريق الأحمر، أليست هذه مباراة لكرة القدم ؟!

صفق الدليل ثم عاد يهرش بسرعة مجيبًا:

- هذه كرة القدم عندنا.

وعاد يهتف ويهرش وقد انتصب واقفًا مع الواقفين استعدادًا لعزف النشيد الخاص بهؤلاء القوم، وبدأ صوت المعلق الرياضي – الذي لم يذكر شيئًا عن أسماء اللاعبين – ينطلق حنجوريًا في فاصل ضروري من التمجيد والتعظيم والدعاية الفجة والنفاق المفضوح بحق سيادة الوصي، وبعدها بدأ الحديث في المباراة فأخذ يتغزل في الروح الرياضية العالية بين كباتن الفريقين فكل منهما يهرش للآخر مع تبادل الأعلام ويكشر له تكشيرة مهددة:

- سيكون سعركم اليوم غاليًا.

- لن يكون أغلى من سعركم يابن الـ....

وبدأت المباراة وسط حماس من اللاعبين ولهيب من الجمهور، واللاعبون يجرون خلف الكرة وخلف بعضهم، من معه الكرة يعدو خلفه ما يزيد عن خمسين لاعبًا في حين انشغل بقية من في الملعب

بمحاولة تعطيل وعرقلة الخمسين الملتفين حول الكرة، وانفرد أحد اللاعبين بالمرمى فعرقله خمسة من الفريق المدافع وأوسعوه ضربًا بعنف حتى هرش الحكم محتسبًا ضربة جزاء، وأخرج مسدسًا ليزريًا أصفر اللون، صوبه نحو اللاعبين الخمسة وأطلق أشعة الليزر القاتلة نحو رءوسهم حتى أرداهم قتلى، وعلى الفور دخلت سيارات الإسعاف تحمل الجثث إلى خارج الملعب وسط تهليل الجماهير وحماس المعلق الرياضى الذي كان يعوي بشكل جهنمي، في حين أمسك أحد اللاعبين بالكرة ووضعها على نقطة التسديد – نحو المرمى – من نقطة الجزاء، ثم عاد للوراء عدة خطوات فأسرع إليه عدد من لاعبي فريقه وأزاحوه بعيدًا وكلٌ منهما يصر أن يسدد ضربة الجزاء، ومع انشغالهم في التعارك استطاع لاعب – أتى من بعيد – أن يسدد ركلة الجزاء محرزًا الهدف الأول ليشتعل الأستاد بالصراخ والعويل والهرش المتعاظم، وبينما كان اللاعب الذي أحرز الهدف يجري محتفلاً بهدفه إذا به قد وضع في كمين من الفريق الآخر إذ اجتمعوا عليه فأوسعوه ضربًا حتى انفقأت إحدى عينيه، وهنا راح المعلق يصرخ معترضًا، وبسرعة هرش الحكم مخرجًا مسدسه الأحمر وصوبه نحو اللاعبين المخطئين، ثم نزلت السيارات لتحمل الجثث، وهرش الحكم ليستأنف المباراة، وتمكن الفريق المهزوم من إدراك التعادل، ومع الهدف دخلت السيارات للملعب لترفع الجثث مرة أخرى، ولم يمض وقت طويل حتى أحرز الفريق الآخر هدف الفوز، والسيارات لا تكف عن النزول لأرض الملعب الذي كان – مع بداية المباراة – مستطيلاً أخضرًا، وظل مستطيلاً حتى الآن ولكن مع تغير لونه فقط . وهكذا مضى الوقت حتى هرش الحكم معلنًا نهاية المباراة، وكان رد الفعل من الجمهور المهزوم فريقه متوقعًا تمامًا، وكانت الموقعة رهيبة، ضارية، مستعرة، وفي المقهى بدأ الأمر بتعالي الهرش المعترض والسباب ضد الحكم في حين

كان هرش البعض مدافعًا عن الحكم لتكون موقعة أخرى تنافس – في سعيرها – موقعة الأستاد، واستطاع الدليل وضيفاه الفرار من المعركة بهدوء واثق والدليل يوجه لهما سبابًا شنيعًا ويصرخ مؤكدًا أنهما السبب الوحيد لهزيمة فريقه لأنهما نحس، ونحسهما فقط ما أصاب فريقه.

- يا حضرة الدليل، أما تذكر أننا أنقذناك من هذه الحرب؟!

أجاب الدليل بغيظ رهيب:

- نعم، لكنكما – بنحسكما – أصبتما فريقي فانهزم أيها الغريبان الفضائيان الأحمقان.

- لا عليك يا حضرة الدليل، سيعوض الفريق في المباراة القادمة.

كاد الدليل يبكي غيظًا وهو يهتف هارشًا:

- سيظل فريقي يخسر طالما يطالعني وجهاكما اللذان يسدان النفس ويقطعان الماء.

- هون عليك، ألا تشجع مانشستر؟!

احمرت عينا الدليل بغضب ملتهب وهو يصرخ:

- يا لكما من أحمقين! وهل هذا يعني ألا أشجع فريقي في بلدي؟!

- هون عليك، إنها مجرد مباراة كرة.

انفجر الدليل، دمدم كالرعد، رغى وأزبد، أصر على تسليمهما لقوات أمن النظام، لم يستطيعا السيطرة عليه إلا بعد أن أقنعاه أخيرًا بأنهما سيعطيانه زجاجة ماء أخرى غير المتفق عليها.

9 - خطاب تاريخي

يوم آخر غير عادي بدأ بالمجيء المبارك للكهرباء، هلل الدليل بفرحة غامرة، انفتح التليفزيون تلقائيًا..

سيادة الوصي سيلقي خطابًا لشعبه بمناسبة ما لا أحد يعرفها.. راح الدليل يهتف بحماس حنجوري:

- بالروح بالماء، نفدي مولانا الوصي.

ثم التفت إلى ضيفيه هاتفًا:

- هيا سنذهب للمقهى.

- لماذا المقهى؟! إنه لن تقوم أي معركة بسبب خطاب الوصي على الأرجح.

- هتف الدليل بالحماس الحنجوري المرتبط بهذه الظروف:

- لا.. لا.. يوم خطاب الوصي العظيم إجازة من المعارك.

- بالتأكيد خوفًا من أن يساء فهم سبب المعركة فيتم إلقاء الطرفين في أقفاص الوصي للأبد.

- ضحك الدليل هاتفًا:

- أخشى عليكما الحسد لذكائكما هذا، والآن هيا إلى المقهى، لأن الاستماع لخطاب مولانا الوصي في المقهى له طعم خاص، كما أن مَنْ لا يحضر في المقهى فإنه...

- الأقفاص.

- ذكيان !

خرجوا إلى الشارع متجهين للمقهى، تتنافس الجموع القاصدة للمقهى في الهتاف بحياة الوصي والاستعداد لفدائه بالروح والماء.

أنهى الجميع إجراءات الحضور للمقهى ولازالوا يهتفون، والتليفزيون يعرض بعض الإعلانات ثم بعض الذين يتحدثون – بالحماس إياه – عن حكمة الوصي، وفلسفة الوصي، وإبداع الوصي، والمذيع يعلن بين وقت وآخر (بنفس الحماس) أن الجميع الآن في انتظار خطاب مولانا الوصي، ويمر الوقت ولا شيء سوى الإعلانات والأحاديث، والهتافات لا تتوقف، حتى بدأ التعب والإرهاق يحل بالجميع دون أن يخف الحماس حتى بدأت البطون تصرخ جوعًا وعطشًا ولازال الهتاف يهز أركان المقهى، ولازال المذيع يعلن – بحماسه الخرافي – أن الجميع في انتظار خطاب سيادة الوصي.

- سيادة الدليل، لقد أثبتنا حضورنا للمقهى وصوَّرتنا الكاميرات وأخذوا بصماتنا؛ فما رأيك لو نتسلل من هنا دون أن يشعر بنا أحد؟!

ضحك الدليل هامسًا في أذن أحدهما:

- الكاميرات تراقب من يحاول التسلل، وهيا اهتفا بإخلاص لأن الكاميرات ستلتقط ميلي على أذنك يا فالح.

ثم اعتدل سريعًا ليشارك في الهتافات المتصاعدة، وقد استبد به الجوع والعطش حتى كاد أن يفقد وعيه لكن مَنْ يجرؤ أن يخفف من

حماسه ، والمذيع يرمقهم – من الشاشة – مهددًا وهادرًا بقرب الإطلالة المقدسة لسيادة الوصي.

أخيرًا.. راح المذيع يتقافز كالقرد المجنون ويصرخ كالذئب الجائع فأدرك الجميع أن الوصي سيلقي خطابه التاريخي الآن واختفى الشعور بالجوع والعطش وهرب التعب من الجميع و...

وظهر الوصي على الشاشة، فإذا الهرش والصراخ ومحاولات الموازنة بين التصفيق والهرش تصير مأساة إغريقية، وبعد أن نال الوصي التحية الواجبة أشار للجميع بالصمت فإذا بالبلاد – في أقل من ثانية – تتحول إلى صمت القبور، وبدأ الوصي يعزف نشيده القدسي:

- أيها الشعب، أتحدث إليكم اليوم من علياء سمائي لأن حالتي المزاجية أوحت إليَ بالحديث، أود أن أذكركم بأفضالي المتوالية عليكم وإنعامي الذي لا ينتهي، إنكم في نعيم وفضل قل أن يجود الزمان بمثله على أي شعب من شعوب هذا الكون فارضوا بما أنتم فيه واحمدوني.

تعالى التصفيف ثم الهرش والهتاف العاوي:

- بالروح بالماء نفدي مولانا الوصي، بالروح بالماء.....

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذا يا حضرة الدليل؟!

- اخرسا قبحكما الله!

- أيها الشعب، إنني أحب الحياة في هدوء، فلا أريد صداعًا، وحذاري حذاري من أي شكوى من أي نوع، فأنا لا يعنيني أمر الفقراء والضعفاء والمأزومين والجربانين، فأنا لست منهم وهم ليسوا مني.

تعالى الهتاف بحياة سيادة الوصي وتجاوب الهرش المحموم مع الهتافات العارمة التي تقسم على فدائه بالروح والماء.

- يا حضرة الدليل!!

- هذا رجل صريح واضح، صادق، لا يخدعنا ولا يسقينا الأكاذيب كما كان يفعل أسلافه، ولذا فالعلاقة بيننا شديدة الوضوح؛ ومن ثم يحبه الشعب ويحييه ويخلص له.. كم هو رجل عظيم!!

- أنتم شعبي الذي ورثته، وورثت حرية التصرف فيه كما أشاء، وأنا الأقدر والأحكم على أن أصنع له مصيره، وقد أمرت بزيادة الأقفاص الحديدية في البلاد لحمايتها من أولئك الخونة الذين يتشدقون بالفضيلة والقيم والحقوق وهذه الخرافات التي لا وجود لها في الواقع ولا حتى في الأساطير.

عادت الهتافات المتجاوبة مع التصفيق والهرش معلنة الإعجاب الرهيب بكلمات الوصي وبلاغته.

- يا حضرة الدليل !!

- صادق، صادق، صادق، واضح كشمس الصيف، وليس كالمنافقين الذين يتشدقون بالحرية والعدل والاكتفاء وهذا الهراء.

- ألا يوجد احتمال– ولو ضئيل للغاية– بصدق من ينادي بهذه القيم؟!

- كل من يقول مثل هذه الكلمات منافق، ضال، مضل، أثيم، خائن، عدو، عميل، لا يستحق إلا أن يقضي عمره التعيس في أقفاص مولانا لعل ذلك يغفر له عشر معشار جزء من خطاياه.

- أيها الشعب، إنني لا أكذبكم القول أو الفعل أبدًا فأنتم شعبي الذي أمتلكه.

بينما الوصي يواصل خطابه البليغ إذا به يصمت فجأة ويبدو أنه لا يجد ما يضيفه فارتفع ظفره النظيف إلى شعره المصفوف وهرش هرشًا خفيفًا للغاية مفكرًا ثم واصل حديثه و...

وهنا كان تجاوب الجماهير عاصفًا رهيبًا من الهرش المجنون والهتافات التي تمزق نياط القلوب والأمعاء قبل الحناجر، والكل يؤكد أن سيادة الوصي يهرش مثلنا، الرجل ينتمي إلى الشعب، يشعر به، هو منا ونحن منه، هو الأب الحقيقي لنا جميعًا، بالروح بالماء.....

- يا حضرة الدليل !!!

- اخرسا أحرقكما الله.

- سيستغل وزير ماليتكم هذه الظروف ليزيد ضريبة الهرش على جميع المواطنين بأمر الوصي طبعًا، ولكن سيتم إلصاق الأمر بالوزير المسكين الذي لا حول له ولا قوة.

- يا لكما من أحمقين! مولانا الوصي ليس بحاجة إلى هذه الألاعيب الصبيانية.

"أيها الناس

اكسروا أصنامكم بعد ضلال، واعبدوني..

إنني لا أتجلى دائمًا

فاجلسوا فوق رصيف الصبر،

حتى تبصروني،

اتركوا أطفالكم من غير خبز..

واتركوا نسوانكم من غير بعل

واتبعوني..

احمدوا الله على نعمته.

فلقد أرسلني كي أكتب التاريخ،

والتاريخ لا يكتب دوني".

وإلى لقاء آخر أيها الشعب الجاهل الذلول.

قضى الناس يومهم في الهتاف للوصي، وانصرفوا لبيوتهم تغمرهم بهجة اللقاء مع الرجل الذي لا يمكن أن يكون أبدًا كالرجال، وما أن وصل الدليل لبيته – مع ضيفيه – حتى انقطع التيار الكهربي.

- اسمع يا حضرة الدليل، إن المقطع الأخير من خطاب الوصي جزء من قصيدة شهيرة لشاعر أشهر لدينا يدعى نزار قباني.

استبد الغضب بالدليل وراح يهتف:

- نزاركم هذا لص، سرق قصيدة مولانا الوصي ولا شك.

هدأ الدليل وراح يهرش مفكرًا، وأخذ يدور حول نفسه تأكله الحيرة ولكن سرعان ما هتف كأنه يدفع عن نفسه تهمة رهيبة:

- لا.. لا.. هذا غير صحيح، بالتأكيد أنا مخطئ، نعم أنا مخطئ، أنا مخطئ ولاشك، لا تفسير إلا هذا.

- ماذا يا حضرة الدليل ؟!

- فلتسمعا - قاتلكما الله – فإنني سأخبركم بأمر لولا أنني أدرك أنكما مجرد كائنين فضائيين ولن تبلغا عني ما أخبرتكما به أبدًا.

- القصيدة لنزار قباني ، أليس كذلك ؟!

- أحرقكما الله وأحرق نزاركم هذا، الأمر أكبر من ذلك.

- ....

- إن خطاب الوصي اليوم لم يكن خطاب اليوم، بل هو نفس الخطاب الذي ألقاه العام الماضى، بكافة تفاصيله، وهذا يعني أن شيئًا ما حدث أو يحدث أو.... لكن لا.. لا.. أنا مخطئ بالتأكيد، أيها الغريبان الأحمقان الخائنان العميلان، فلتنسيا هذا الهراء الذي هذيت به الآن، وإلا فالأقفاص تنتظرنا جميعًا.

10- وكر الفضيلة

على غير العادة فوجئ الناس بضيف عزيز يحل عليهم على غير موعد، وجود التيار الكهربي يحتاج لحفل خاص، ويحتاج أيضًا لمعرفة السبب، التليفزيون عمل تلقائيًا بمجرد وجود التيار، المذيع الوسيم يتقافز كالقرد الغاضب:

- أيها الشعب، وكر الفضيلة، وكر الفضيلة.

- ما هذا يا حضرة الدليل ؟!

- اخرسا حتى نعرف.

راح المذيع يهدر:

- استطاعت قواتنا الباسلة العظيمة الرائعة، بأوامر عليا، وتوجيهات قدسية من جلالة سيادة الوصي، أن تكتشف وكرًا جديدًا به عدد من الأشرار كان يمارسون الفضيلة والعياذ بالله، كانوا يهرفون بمرادفات مرعبة، يشيب لها الولدان وتجهض منها الأرحام الصناعية، كانوا يقولون ...

يقولون...

يقولون...

لكن لا، لن ألوث أسماعكم بمفرداتهم النجسة، ولكن اطمئنوا وقروا عيونًا؛ فإن قواتنا قامت بالمطلوب تمامًا، وإليكم صورهم وأصواتهم.

اختفت صورة المذيع لتظهر الأقفاص المرعبة، وإن كانت أكثر رعبًا، ووسائل التعذيب وآلاته فيها متعددة، متشابكة، معقدة، تشعرك بأن آلافًا من البشر عاشوا آلافًا من السنين يتفننون ويبدعون في كيفية إيذاء وتعذيب الآخرين.

- لدينا في كوكبنا الأرضي أديب عراقي يدعى "عبود الشالجي" أصدر موسوعة مذهلة بعنوان "موسوعة العذاب" تتكون من سبعة مجلدات ضخمة تحكي عن وسائل التعذيب وطرائقه وألوانه المريعة التي كان يمارسها الطغاة والغزاة ضد البشر.

أخذ الدليل يهرش مستهينًا:

- سبعة مجلدات فقط ! على رجلكم هذا أن يزور بلادنا الحبيبة ويطوف بالأقفاص – في طول البلاد وعرضها – ليخرج بموسوعة لا تحويها مكتبة كاملة، إنكما تلاحظان أن وسائل التعذيب في أقفاص كل منطقة تختلف تمامًا عنها في بقية المناطق، فكل منطقة تمثل حالة متفردة، مبدعة، متميزة عن غيرها.

- ولكن يا دليلنا المتمكن، الناس لديكم لا يعنيهم أمر هذه الأقفاص، فهم يمرون أمامها، والأطفال يلعبون حولها، والعشاق يلتقون عندها.

ضحك الدليل وهو يحك ظهره بالحائط ويهرش بكلتا يديه:

- هذا لأن الكاميرات الالكترونية – في الأقفاص – تراقب عيون الناس وانفعالات وجوههم في محيط دائرة قطرها مائة متر، وإذا

اصطادت الكاميرات أي تعاطف من أي نوع أو تأثر فإنها تطلق أشعة خاصة تصيب هذا الشخص الرومانسي فتجعله مميزًا تمامًا لقوات أمن النظام فيتم القبض عليه وإيداعه القفص فورًا.

- يمكن للناس الابتعاد تمامًا عن هذه الأقفاص اللعينة.

عاد الدليل يهرش ساخرًا:

- هذا أيضًا غير متاح، فأن تهرب من القفص فهذا معناه أنك متعاطف يخشى افتضاح أمره، وقد كان بعض المنافقين والموتورين يقفون أمام الأقفاص مظهرين الشماتة البالغة والسخرية السقيمة بمن في الأقفاص، ويهتفون بحياة سيادة الوصي إلا أن الكاميرات الجبارة كان يمكنها أن تلتقط (من بين الصياح والهرش والنظرات والإشارات الكارهة الشامتة) أي ومضة تعاطف غريزية نادرة تودي بصاحبها إلى القفص، لذا لم يكن أمام الناس إلا تدريب أنفسهم وأولادهم على الاقتراب من الأقفاص مع تجاهلها التام وكأنها لا وجود لها.

- هذا عذاب في حد ذاته.

هتف الدليل هارشًا بعنف متحمس:

- سيادة الوصي يدربنا ويعلمنا ويرفع قدراتنا و...

- مفهوم يا دليلنا العزيز، ويكتشف فيكم القدرات الكامنة.

- إنكما أذكياء للغاية أيها الغريبان الغبيان الأحمقان.

انقطع التيار الكهربي بمجرد أن أتم المذيع المهمة المطلوبة.

- نرجوك يا دليلنا الهمام أن تخبرنا بهذه المفردات المدنسة التي يعتنقها هؤلاء الذين يمارسون الفضيلة في الأوكار وقد خاف المذيع الظريف أن يلوث بها أسماعنا.

- إنها السبب الأول والرئيس لقضاء العمر كله في الأقفاص، وليس بين الرجل والأقفاص إلا أن يسمعه أحب وأقرب الناس إليه ينطق بإحداهما ولو على سبيل السخرية.

- يا حضرة الدليل، نحن جئنا إلى هنا لنعرف لا لنبلغ عنك، وأنت معنا في ظروف خاصة لا تنطبق عليك بعض قواعدكم وقوانينكم هنا، وقد رأيت بنفسك كيف هربنا بك من عدة مواقف مميتة، فهيا أخبرنا.

راح الدليل يهرش متوترًا:

- كله إلا هذا.

- ....

- ....

- سنعطيك زجاجة ماء ثالثة.

- ....

- ولن يعرف مخلوق أنك قد التقيت بنا أصلاً.

- ليست أسرارًا ولا أشياء مدهشة، فأنتم تعرفونها جيدًا، إليكما بعض هذه المفردات على سبيل المثال.

زفر الدليل مستعدًا وقد امتقع وجهه وراح يتلفت حوله – ربما للمرة الألف – ليتأكد ألا أحدًا يسمعه ثم انطلق:

- مظاهرة.. مسيرة.. احتجاج.. حق.. عدالة.. ظلم.. ثورة.. كرامة.. ديمقراطية.. أمان.. اكتفاء.. وعي.. كتب.. بحث علمي.. قراءة.. علم.. علماء.. ورق.. قلم.. كمبيوتر.. حداثة.. وعي.. سياسة.. فن.. أدب.. النظام.. يسقط.. مشاعر.. إرادة.. مقاومة.. إبداع.. اجتماع.. اعتصام..

إضراب.. مدنية.. الجمال.. الحق.. ميدان.. الخير.. حرية.. نقد.. استبصار.. استقراء.. توقع..

كان الدليل يطلق الكلمات بتلذذ وشهوة غريزيين غريبين والضيفان يراقبانه متعجبين متساءلين متى يكف وقد بدت الكلمات وكأن سدًا منيعًا حصينًا كان يحتجزها فلما انهار السد انطلق الماء الهادر طوفانًا وتدفقت الكلمات قوية، عفية، هادرة، منذرة، حارقة، هائجة، مائجة، موحية، ملهمة، قادرة.

11- عالم آخر

قال الدليل وهو يهرش بحماس:

- الآن نحتاج لقدراتكما الفضائية كي نزور جانبًا آخر في بلادنا الغالية.

- لا بأس يا دليلنا الجميل.

- هيا بنا.

قصر فخم ضخم، تحيط به حديقة غناء، وبه حمام سباحة أوليمبي خيالي الشكل، أبدع مَنْ صممه إبداعًا خاصًا، وفي حديقة القصر امتدت مائدة طويلة تبدو بما عليها من صنوف الأطعمة الشهية والمشروبات الفاخرة وكأنها قادمة توًا من حكايا ألف ليلة وليلة، تتناثر عليها عدد من أفراد الأسرة يطوف عليهم الخدم المتوترين اليقظين في انتظار أي إشارة لتلبيتها فورًا، والأب يقول متأففًا:

- ألن يأتي هذا الولد ليتناول غداءه معنا ؟!

تجيبه الأم بعدم اكتراث:

- دعك منه.

وفي الداخل يقف شاب مراهق أمام صنبور المياه (الذي انفتح عن آخره) ليحلق ذقنه باستمتاع متمهل وهو يدندن بلحن أغنية شهيرة هذه الأيام، فلما أوشك ينتهي رن هاتفه المحمول بعبارة:

"المزة تتصل بسيادتك يا أفندم".

كان المحمول بعيدًا عن متناول يده عدة أمتار فأشار إشارة خاصة تجاه المحمول فإذا بالأخير يطير من مكانه ليستقر في كف صاحبه كي ينعم الأخير بالنظر إلى الأنثى التي تظهر صورتها مجسمة مرتدية ملابس السباحة ذات القطعتين وهي تناديه.

طالت المكالمة الهاتفية وأنهاها الشاب بـ:

- أنا قادم إليكم حالاً.

نادى خادمته الشابة كي تساعده في ارتداء ملابسه، إشارة أخرى ثم ضغطة على زر بالهاتف المحمول فإذا بالسيارة تصدر عبارة "مستعدون للانطلاق يا سيدي".

نزل السلم بقفزات مرحة، مر على حديقة القصر دون أن يلقي التحية على الجالسين لتناول الطعام، وقد ترك الصنبور يقذف بدفقات الماء المندفعة في الحوض الزجاجي الذي يدفعها بدوره إلى البالوعة الفضية، وجاءت الخادمة فأخذت شيئًا ونظرت للصنبور المفتوح نظرة متبلدة ثم انصرفت متكاسلة.

- وصل الشاب إلى سيارته الجوبرمائية وهمّ بالقفز داخلها برشاقته المعهودة إلا أنه لاحظ (في أحد إطاراتها) شيئًا يكاد لا يرى بالعين فنادى خادم السيارة غاضبًا:

- يا عبده، أنت يا زفت يا عبده.

جاء عبده مسرعًا وقد ترك خرطوم المياه مفتوحًا:

- تحت أمر سعادتك يا باشا.

- هل غسلت هذه السيارة ؟!

- غسلتها تسع وتسعين مرة يا معالي الباشا، وها هي تبرق كأنها لؤلؤة سقط عليها شعاع الشمس.

- اغسلها مائتي مرة يا حمار، انظر لهذا الشيء على الإطار.

- حاضر يا باشا.

- ترك الباشا المراهق السيارة لعبده واتجه بهدوء يستعرض صفًا من السيارات المماثلة فاختار إحداها منطلقًا بها ليلتقي بالثلة في النادي.

- أما الباشا الكبير فقد انتهى من غداءه، واستلقى يستمتع بحمام شمسي ثم قرر أن يبدأ التدريب استعدادًا لبطولة السباحة في النادي، فبدل ملابسه، وراح يعوم في الحمام الأوليمبي، ويغطس باستمتاع وهو يغني بنفس الأغنية الشهيرة هذه الأيام، وفجأة استجاب لفكرة هبطت عليه كالوحي فخرج من الحمام مناديًا:

- يا إدريس، أنت يا زفت يا إدريس.

يأتي إدريس مسرعاً ليلبي أمرًا قدسيًا.

- نعم يا باشا.

- لقد تغبرت مياه حمام السباحة الخاص بي، قم بتغييرها الآن كي أستمتع بحمامي.

- لقد غيرتها منذ دقائق فقط يا سيدي الباشا.

صرخ الباشا بنفاد صبر:

- غيرت مياه الحمام الأوليمبي، وليس حمامي الخاص يا غبي، يبدو أنك كبرت ولم تعد تركز في عملك.

اصفر وجه إدريس برعب عجيب وهو يهتف بضراعة:

- لا يا معالي الباشا، لم تكبر سني، أنا طوع بنان سعادتك، سأغيّر مياه الحمامين، الحمام الخاص بسيادتك والحمام الأوليمبي أيضًا.

ابتسم الباشا راضيًا.

- هكذا يكون النشاط يا إدريس.

وفي النادي أمام الحمام الأوليمبي احتشدت الجماهير المرفهة لمشاهدة المسابقات وللاستمتاع بحمام شمسي، لذا فقد تخلص معظمهم من معظم ملابسهم، والمعلق الرياضي يقول بحماس وأنغام الموسيقى الهادئة تمنح صوته سحرًا خاصًا:

- والآن أيها السادة، فقد فاز في سباق مائة متر حرة أكرم باشا، والسباق القادم مائة متر فراشة، وسيشترك فيه زهدي باشا، ونوال هانم، و.... و.....

- وكما هو متبع في نظام التسابق لابد من تغيير مياه الحمام قبل كل سباق، وإلى أن يقوم الخدم بتغيير المياه دعونا نستمع إلى موسيقىأخرى، ونشاهد بعض عروض الباليه المائي في الحمام رقم 33.

وعلى الفور راح المدرج – الذي يستلقي فيه الجمهور – يستدير على قاعدة هيدروليكية ليواجه حمام رقم 33.

- من هؤلاء يا حضرة الدليل ؟!

أجاب الدليل بحماس:

- هؤلاء علية القوم.

- وهل كل هذا الماء الذي رأيناه هنا وفي القصر ماء عذب ؟!

- عذب فرات، نقي بنسبة مائة في المائة.

- آه !

- ماذا قبحكما الله ؟!

- إنها نفس الثنائية البشعة الشهيرة، قلة نادرة تمتلك كل شيء، وتبلع الأخضر واليابس، وكثرة كاسحة لا تملك شيئًا على الإطلاق.

- زمجر الدليل هاتفًا:

- هل لديكما اعتراض ؟!

- الاعتراض يجب ألا يكون لدينا: فنحن مجرد كائنتين فضائيين، ودورنا ينتهي عند الدهشة والتأمل، أما البقية فأنتم وحدكم المسئولون عنها، وحدكم أصحاب الشأن في بلادكم، إن أردتم!!

12 - خـاتمة

ضحك الدليل هارشًا بسعادة:

- الكهرباء ! إذن هناك أمر جلل ولاشك.

ولم يخب حدس الرجل إذ سرعان ما ظهر المذيع متظاهرًا بالحزن:

- أيها الناس، ننعى لكم ببالغ الأسى والحزن و... و... سيادة الوصي.

وسرعان ما انقلبت لهجة المذيع إلى الفرحة الغامرة وهو يضيف:

- وَنَزُّفُ لكم البشريات والتهاني بسيادة حضرة صاحب الفخامة والسمو، المنقذ وال... وال... وال...

الوصي الجديد، والآن قوموا إلى المقاهي حتى تستمعوا للخطاب الأول من سيادة سيادته.

- مات الوصي.. عاش الوصي.

- هناك أمر يشغلنا يا حضرة الدليل، ماذا ستفعلون بكل الصور والتماثيل الخاصة بحضرة الوصي السابق؟!

انتفض الدليل غاضبًا:

- أجحمه الله، كم كان ظالمًا، باطشًا، كم أجاعنا! كم.. وكم.. كان أسدًا علينا وعميلاً ذليلاً للقوى الكبرى وكان...

- مهلاً يا حضرة الدليل، اذكروا محاسن موتاكم.

- عندنا لا محاسن للموتى، فقد أنعم الله علينا بمن سينقذنا من كل ما نحن فيه.

- ....

- قبحكما الله ! ماذا تريدان ؟!

- نريد إجابة عن سؤال ماذا ستفعلان بكل هذه الصور والتماثيل القديمة ؟!

مط الدليل شفتيه بامتعاض:

- كما يحدث كل مرة، مجرد إعادة تدوير للصور والتماثيل القديمة لتصبح كلها للوصي الجديد، وينسى الجميع كل شيء عن القديم، هيا معي نتجول في بعض الشوارع. كانت الشوارع والطرق...

والبنايات والبيوت..

والمحلات والمكاتب..

والشركات والأكشاك..

وغرف النوم والملابس الداخلية..

كلها تقبع فوقها صور وتماثيل الوصي الجديد.

- بهذه السرعة !

- التكنولوجيا هنا مبهرة للغاية.

- تستطيعون استغلالها لصالحكم، والآن حان وقت عودتنا لكوكبنا، نشكرك بشدة يا دليلنا على ما قدمته لنا من خدمات، والآن إليك زجاجات الماء المتفق عليها.

احتضن الدليل الزجاجات ثم أسرع بإخفائها قائلاً بأمل:

- هل يمكنكما أن تعطياني قدراتكما الفضائية ؟!

- بداخلكم قوة أعمق وأعظم.

- ألا يمكنكما أن...

- أنتم وحدكم المسئولون.